د . عبد الله إبراهيم محمد راجح

الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة بعد الهجرة

مقدمـــــة

إن الحمد لله جل جلاله ، نشكره على نعمائه ، فالكل من آلائه وإليه مآله ، والمصـــلي عليه نبينا محمد وآله ، أتم الله به النعمة وأكمل به الدين ، وختم به الأنبياء والمرسلين ،وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالميـــن ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ، وأخرج الناس من ظلمة الجهالة والضلالة إلى نور العلم والرقي المبين ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ، بفضل رجال- حوله - حملوا مشعل الهداية والنور إلى العـــالمين، وهـــم أصحابـــه الميامـــين : ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِـــي ضَـــلالٍ مُـــبِينٍ)) (الجمعـــة:٢ .- وبعـــد ..

فلقد كثر اللّغط في عالمنا المعاصر[1] – وخاصة من قبل أعداء الإسلام – أن ديـــن الإسلام لم يقدم للحضارة الإنسانية شيئاً سوى العنف والإرهاب والعدوان ، وقد حفزني هذا اللغط إلى البحث فيما قدمه الإسلام للحضارة العالمية ، من خلال القرآن الكريم ، وســـنة سيد المرسلين ، وإبراز هذا العطاء الحضاري للإسلام ، فكتبت بحثـــاً عـــن : " مقومـــات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية " ، وآخر عن " القيم الحضارية في القرآن الكريم والسنة النبوية " .

---

* أ . م في كلية التربية للبنات بيـــع- وقسم التاريخ والحضارة فى كلية اللغة العربية بالقاهرة- جامعة الأزهر.

وقد ضاعف من همّتي للاستمرار في البحث في هذا المجال ، أن تلقيت دعوة كريمة من قِبَل : الجمعية التاريخية السعودية للاستكتاب في اللقاء العلمي العاشر بالمدينة المنورة ، حول أحد محاور اللقاء – عن منطقة المدينة المنورة – ، فاخترت المحور الثاني " المدينة المنورة ، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم " لأنه بجانب كونه عمل علمي أكاديمي ، أحسبه – كذلك – من وسائل القربات إلى الله ورسوله ، للزّود عن منهج الله ، الذي جاء به القرآن والسنة ، لهداية العالمين ، وإقامة مجتمع فاضل قويم ، فجاء البحث تحت عنوان : " الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة بعد الهجرة".

وقدمت له بتمهيد عن : المدينة الفاضلة عند الفيلسوف المسلم " أبي نصر الفارابي" ، وبيّنت تأثره بالفكرة اليونانية الأفلاطونية ، ثم أوضحت كيف تأثر الغرب الأوروبي بهذه الفكرة التي نقلها " سير توماس مور " عن تراث المسلمين وحضارتهم – في مطلع النهضة الأوروبية الحديثة – ووصف فيه أحوال وقيم هذه المدينة الفاضلة ، وإن أسماها " يوتوبيا " ، أي مدينة لا وجود لها إلا في عالم الخيال ، فرددت عليه مقولته هذه ، بأنها ليست " يوتوبيا"، ولكنها المدينة الفاضلة التي وجدت في عالم الواقع الإسلامي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين ، وبيّنت الأسس والركائز المنهجية التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع هذه المدينة الفاضلة في يثرب بعد الهجرة ، وقدّمت لهذا الموضوع بنبذة عن الحالة الراهنة في يثرب عند الهجرة ، وأصناف الفرقاء فيها ، ثم تناولت الأساس الأول للبنيان الجديد وهو : بناء المسجد النبوي ، ولماذا ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم به ، وأهميته في بناء الدولة الجديدة . ثم تحدثت عن الأساس الثاني وهو : الإخاء الإسلامي بين المهاجرين والأنصار ، مبيناً أسبابه وآثاره ، وما سهله من موجبات السمع والطاعة لله ولرسوله ، ثم تناولت مهادنة اليهود والأعراب حول المدينة ، كأساس ودستور للعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم ، وأكدّت على أن الإسلام دين تعاون ومودة ، وبر بغير المسلمين إذا ما التزموا جانب السلم مع الإسلام وأهله ، ثم ختمت البحث بالأساس الأخير والمهم ، وهو : الإعداد والجهاد للذود عن هذا البنيان ، وليس للعدوان

على غير المسلميـــن – كما يزعم أعداء المسلمين – واستدللت على كل ما كتبت بآيات من القرآن الكريـــم ، وسنـــة سيد المرسليـــــن .

وتوصلت إلى أن عالم اليوم ، لو أخذ هذه الأسس التي أرساها النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالرضى والقبول ، لاستطاع أن يبني أعظم حضارة ، وأقوم مجتمـــع ، يضمـــــن للإنسان الأمان من الخوف ، والإطعام من الجوع ، والسعادة المادية ، والراحة النفســـية ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدون – من بعده – حين طبقـــوا هـــذه الأسس ، فأقاموا المجتمـــع الفاضل ، والدولة القويمـــة في صدر الإسلام ، والتي ما تـــزال حقبتهـــا غُرّة في جبيـــن الدهـــر ، ولو كره الحاقدون ..

والله أسأل أن يعيدهـــا للمسلميـــن ثانيـــة ، وما ذلك على الله بعزيز .. إنه أهل لـــه وهو القادر عليـــه .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالميـــــن ....

تقديـــــم

(١) المدينـــة الفاضلـــة عنـــد الفارابي .

قامت الحضارة الإسلامية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين علـــى أساس القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وبعض من تراث الأمم الأخرى الـــذي ، لا يخالف القرآن والسنة – وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية الواسعة في الشـــرق والغـــرب والشمال – ، لكنـــه بعد تولى العباسيـــن الخلافة عملوا على نقـــل التـــراث القـــديم إلى الحضارة الإسلامية ، فنقلوا تراث مصر القديمة والهند والفرس واليونان ، وأقاموا مراكـــز للترجمة لتعريب هذا التراث ، وخاصة اليوناني منـــه [٢]، وازدهرت حركة علمية وحضارية كبيـــرة ، خاصة في القرن الرابع الهجري في شتى مناحي الحياة ، وخاصة الحياة العلميـــة ، أثمرت رموزاً لعلماء ومفكرين مسلمين ، حملوا عبء الفكر الإنساني ، وانطلقت الطاقات الإسلامية لشرح وتطبيق هذه العلوم بالممارسة والتجربة والاستقصاء ، فتقـــدموا بـــالعلوم والثقافة خطوات على طريـــق الحضارة ، وتركوا بصماتهم على صفحات التاريخ ، في شتى العلوم التي بنى عليها الغرب الأوروبي نهضتـــه وتقدمـــه في مجـــالات العلـــوم التطبيقيـــة والفلسفيـــة .

ومن هؤلاء الذين اشتغلوا بالعلوم الفلسفية والعقلية " أبو نصر الفارابي " المتـــوفى ســـنة ٣٣٩ هـــ ، فقد درس الفارابي الفلسفة اليونانية القديمة وتأثر بكتاب " النفس " لأرســـطو طاليس ، وقال إنه قرأه مائة مرة ، كما تأثر بكتاب " السماع " لنفس المؤلف ، وقال أيضاً : إنه قرأه أربعين مرة ، كما قرأ جمهورية أفلاطون (المدينة الفاضلة) وتأثر به ، وأخـــذ عنـــه الفكرة المادية للمدينة الفاضلة .

إذن فكرة المدينة الفاضلة هي فكرة أفلاطونية ، – خرجت من عقل فيلسوف نشـــأ في بيئة إسلامية ، – كما يقول د . طه الدسوقى حبيشي [٣].

تحدَّث الفارابي – من بين ما تحدث – في كتابه عن المدينة الفاضلة ، فوصفها بأنها المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة ، فكل الحيـــاة فيهـــا

قائمة على التعاون ، وشبّهها بالبدن التام الصحيح ، فكما أن رئيس البدن في الإنسان هو القلب ، وبقية الجوارح تبع له حسب أهميتها ، فكذلك المدينة الفاضلة يقع في القلب منها الرئيس، الذي يجب أن يتمتع بخصال عظيمة [٤]ويليه في الأهمية من هم أقرب إلى الرئيس (البطانة) ، ودون هؤلاء قوم يعملون الأغراض التي ترضي الرئيس وتسعده ، ومن دونهم قوم يعملون لصالح الرئيس ، ثم دونهم قوم آخرون يعملون لصالح الأوّلين بإرادتهم ، لكن دون مصلحتهم هم ، أو مصلحة عامة أهل المدينة [٥].

ثم تحدث عما يضاد المدينة الفاضلة مثل : المدينة الضالة ، والمدن المبدلة ، فقال : " الذي أضل أهل المدينة الفاضلة وعدل بهم عن السعادة لأجل شيء من أغراض أهل الجاهلية – وقد عرف السعادة – فهو من أهل المدن الفاسقة .. وهو وحده – دون أهل المدينة – شقي ، وهم يهلكون وينحلّون جميعاً [٦]" .

وعن المدن المبدلة قال : " أما المضطرون والمقهورون من أهل المدينة الفاضلة على أفعال الجاهلية ، فهم أهل المدن المبدلة ، فإن المقهور على فعل شيء لما كان يتأذى بما يفعله من ذلك ، صارت مواظبته على ما قُسِر عليه ، لا تكسبه هيئة نفسانية مضادة للهيئات الفاضلة ، فتكدر عليه تلك الحال ، حتى تصير مترلته مترلة أهل المدن الفاسقة ، فلذلك لا تضره الأفعال التي أُكْرِه عليها ، وإنما ينال الفاضل ذلك الذي وصف به أهل المدينة الفاسقة ، متى كان المتسلط عليه أحد أهل المدن المضادة للمدينة الفاضلة ، واضطره إلى السكن في مساكن المضادّين " ، ثم تحدث عن الأشياء المشتركة لأهل المدينة الفاضلة، وأولها معرفة السبب الأول ، ثم الأشياء المفارقة للمادة وصفاتها التي تنتهي من المفارقة إلى العقل الفعّال[٧]... الخ.

لقد بنى الفارابي وجهة نظره – في بنية كتابه – على : دعوة التقريب بين الثقافتين الإسلامية واليونانية – المتأثر بها – وهي دعوة ينقصها الدليل ، ولا يفيد فيها التبرير ، ولا تتمّ إلا بتنازل إحدى الثقافتين للأخرى ، وبما أن الثقافة اليونانية لا تتنازل عن شيء من

قيمها ، فإن المطلوب أن يتنازل الإسلام وثقافتـــــه عن شيء من تشريعاته الإلهية ، وهو ما ألمح إليه الفارابي .

وكثيـــر من الفلاسفـــة حاولوا مجاراة الفارابي – من يومها إلى الآن – وفشلوا ، لكنهم يعيدونه اليوم تحت مسمى جديد هو : الحوار بين الإسلام والغرب .

إن أخطر ما جاء في كتاب الفارابي هو حديثه عن الإلهيات ، حيث جاء رأيه فيها محكوماً بمبدأين يونانيين :

أحدهمـــا : أن الله لابد أن يكون واحداً من كلٍ ، وهذا يؤدي إلى تعطيل الله عن صفات كمالـــه .

وثانيهما : أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وهو العقل الثاني ، ومن ثم العقل الثالث . وهكذا .. مما يؤدي إلى التسلسل ، وهذا يناقض عقيدة الإسلام . ولما تحدث الفارابي عـــن السياسة المدنيَّة ، اضطر إلى الحديث عن الفلاسفة و الأنبياء والمصلحيـــن ، ومن ثم تحـــدث عن الرياسة العامة في المدينة الفاضلة ، والشروط الواجب توافرها في هذه الرياسة ، ونسى – أو تناسى – أن هذه المدينة الفاضلة التي تأثر بها من خلال جمهورية أفلاطـــون ، كانـــت مدينة طبقية ، ومن ثم لا يصح نعتها بالفاضلـــة .[٨]

٢ – المدينـــة الفاضلـــة عنـــد "سيـــر توماس مـــور"

إننا في نظرة شاملة لمدى أوسع ، نستطيع أن نؤكد أن أوروبا في أواخر العصور الوسطى (من أوائل القرن السادس إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي) كانت ترزح تحت ظلام دامس ، حتى أُطلق على هذه الفترة في التاريخ الأوروبي (العصور الوسطى المظلمة) حيث طبع فيها التعليم بطابع ديني غيبـــي جامد ، وهيمنت الكنيسة على فرض هذا النوع مـــن التعليم ، ومحاربة كل وسائل البحث العلمي المادي[٩] . وظَاهَرَ بعض حكام أوروبا الكنيسة في هذا المجال ، فقد حرَّم ثيودريك ملك القوط في شبه جزيرة أيبيريا (بلاد الأندلس فيمـــا بعد) إرسال أبناء القوط إلى المدارس ، بمقولة أن الطفل الذي يشب على الخوف من عصـــا

المعلم ، لن يكون في مستقبل حياتـــه شجاعاً يواجه السيوف والحراب ، وفضلاً عن ذلـــك انتشرت المفاسد الدينية ببيـــع صكوك الغفران لمن يدفعون للكنســـية ورجـــال الـــدين ، وحرمان من ينقدونها من دينهم ، بل ومعاقبة بعضهم بالطرد و الحرق [١٠].

حدث هذا في الوقت الذي نضجت فيه حضارة الإسلام واكتمل بناؤها ، وأخذت تشقّ طريقها إلى أوروبا عبر علماء الإسلام ، ومراكز الترجمـــة في كل من الأندلس وصقلية ، ثم إبان الحروب الصليبية ، وما أحدثته من احتكاك ثقافي بين المسلمين والصليبيـــــن ، فعـــن طريق مراكز الترجمة في قرطبة وصقلية (باليرمو) نقل الأوروبيون الكثير من تراث الحضارة الإسلامية في العلوم والآداب ، وبخاصة تلك الأفكار التي تدعو إلى الحرية ، ونَقْد ســـيطرة الكنيسة على شؤون الحياة ، وقد اعترف أحد أعلام النهضة الأوروبيـــة في القـــرن ١٣ م "دانتي أليجيري " (١٢٦٥– ١٣٢١ م) بأن الشعر الإيطالي هو نتـــاج للشـــعر العـــربي الموروث من حضارة صقلية[١١]. كما استفاد دانتي نفسه من رسالة الغفـــران لأبي العـــلاء المعري (عن رحلة الإسراء و المعراج) ، وكتـــب منـــها مؤلّفـــه المشـــهور " الكوميـــديا الإلهيـــة"[٢]. والتي نقد فيها الكنيســـة تصريحا لأول مرة ، حينما تحدث فيه عـــن رجـــال الدين والقسس ، و أنه رآهم في النار ، أما العبيد و الفقراء فإن مترلتـــهم الجنـــــة ، وأن الأعراف أو المطهر ، – وهو سور بين الجنـــة والنار – فإنه مكان المنافقيـــن الممالئيـــــن لسلطة الكنيســـة [١٣] .

وجاء بعده في مطلع القرن السادس عشر الميلادي " السير توماس مـــور " (١٤٧٨ – ١٥٣٥م) – أحد أعلام النهضة الأوروبية أيضاً في أواخر القرن ١٥ م – وقد استفاد مـــن حركة ترجمـــــة التـــراث الإسلامي و الفكري والسياسي إلى اللغات الأوروبية ، وخاصة كتابات ابن رشد ، وابن حزم ، والفارابي ، فقد استفاد من الأخير ونقل عنه الكثير من آرائه في كتابه : آراء أهل المدينـــة الفاضلة ، وأسمى كتابه " يوتوبيا "[١٤] فما الذي جاء في هـــذا الكتاب . [١٥]

كان" توماس مور " أحد أعلام النهضة في إنجلترا ، وذكر في كتابة أن مليكه " هنـــري الثامن " أرسله في بعثة إلى بلاد فلاندرا – بلجيكا الحالية – كسفير له فيها ، وما أن وصل إلى هذه البلاد حتى استقر في جزيرة " يوتوبيا " ، وبمعونة أحد ابنائها ويدعى " روفائيـــل هيثلوداي " وأخذ يصف مدنها ، وماءها ، والقانون الذي يحكمها ثم تحدث عن زي أهلـــها الموحد ، فذكر أن لكل واحد حُلّة واحدة كل عامين ، الرجال والنساء سواء كما ذكر أن الأبناء يخضعون لطاعة الوالدين ، وأن الزراعة هي مهنة إجبارية لأهل البلاد ، يختـــار كـــل واحد بجانبها حرفة أخرى إضافية ، وأن الطفل يتعلم مهنة أبيه ، أما النساء فـــإنهن يقمـــن بأعمال نسج الثياب، وذكر أن الدولة هنـــاك تحـــدد ساعات العمل بســـ ـــت ســـاعات فقط ، وأن الناس يتناولون العشاء مبكرين وينامون مبكرين .

ثم تحدث عن سنّ الزواج ، وأنه محدد بثمانية عشر عاماً للمـــرأة ، واثـــنين وعشـــرين للرجل، وأن الطلاق غير مباح إلا بالتوافق بين الزوجين ، أو بموافقة مجلس شورى الدولة . كما ذكر أن المرأة لا تستخدم المساحيق للزينة ، ولا تلبس الملابس الخليعة ، وأن الجمـــال هناك هو جمال الخُلق وليس جمال الخَلْقْ ، كما ذكر أن عدد أفراد الأســـرة محـــدَّد ، أي أن يوتوبيا تقرر تنظيم الأسرة بتحديد النسل ، وأضاف بأن يوتوبيا بها أربع وخمسون مدينة ، لا يجوز الانتقال بين مدنها إلا بتصريح ، ولا يمكث الشخص بها بدون عمل سوى يوم واحد ، وأكـــد أن المساواة و المواساة قائمة بين هذه المدن ، إذ تأخذ كل مدينة مـــا تحتاجـــه مـــن الأخرى بدون ثمـــن أو ضريبة ، لأن الإنتاج وفير يفيض عن حاجة الســـكان ، والمجتمـــع اشتراكي يقوم على التكافل ، كما ذكر أن سكان يوتوبيا يحقّـــرون الـــذهب والفضـــة ، فيصنعون منه شارات نزلاء السجون وأرباب السوابق وذوي الأخلاق السيئة ، وأن الجواهر والفضة لحُلي الأطفال فقط ، وأكد أن سكان الجزيرة يفضلون الحديـــد علـــى الـــذهب والفضة، لأنه أكثر فائدة في مجال الصناعات الإنشائية ، وللدلالة على صدق كلامه ، ذكر أن السفراء الذين جاءوا بحلي الذهب إلى الجزيرة طرحوه أرضاً ، لأنهم وجـــدوه موضـــع سخرية من أهل الجزيرة .

أما عن الدين : فذكر أن حرية العقيدة مكفولة في يوتوبيا ، لكن الأغلبية للموحِّدين ، وإذا كان لكل إنسان الحرية في اعتناق الدين أو المذهب الذي يريده ، فإن من يثير الفتن الدينية يطرد من الجزيرة ، وذكر أن أماكن العبادة جميلة تلائم جميع الديانات ، وأن أول كل شهر وآخره أيام مقدسة ، وأكّد أن كل من ارتكب جرماً يصبح عبداً .

أما من الناحية السياسية : فذكر أن مبدأ الحكم يقوم على الانتخاب الحر ، وأن أهل الجزيرة يختارون رئيسهم مدى الحياة ، عن طريق مجلس الشورى الذي تمثل فيه جميع العائلات ، كما ذكر أن السلطة القضائية مستقلة عن السلطة التنفيذية ، وأن كل قضية يفصل فيها قاضيان ، وان العقوبة على قدر الجرم .

وأضاف : أن أهل الجزيرة يمقتون الحرب ، ويرون أن هناك وسائل أخرى لفض النزاع ، كالذكاء والدهاء والحيلة ، لأن القوة في مفهومهم هي وسائل الوحوش في الغابات ، ورغم ذلك فإن أهل الجزيرة يدافعون عن بلادهم بكل قوة إذا ما اعتُدى عليهم .

وينتقد "توماس مور " طبيعة المجتمع الإنجليزي خاصة – والأوربي عامة – في مساواته في عقوبة الإعدام بين القتل والسرقة ، وكان غرض " توماس مور " من يوتوبيا يرمي إلى :

١– الحملة على النظام الرأسمالي في بلاده (انجلترا) .

٢– الدعوة إلى حرية العقيدة لدرء الخصومة بين الكاثوليك والبروتستانت .

٣– تعديل القوانين الجائرة في إنجلترا .

٤– تنظيم العلاقات الدولية لمنع الحروب ، وهو نقد يوجهه لحروب مليكه " هنري الثامن " .

٥– المقارنة بين المساوئ الاجتماعية التي تسود أوربا عامة – وانجلترا خاصة – ، وبين المثل العليا في يوتوبيا .

تلك هي المدينة الفاضلة التي أشاعت كل شيء بين الناس ، حتى صاروا أغنياء بالقناعة ، بخلاف انجلترا التي قسَّمت المجتمع إلى سادة وعبيد ، ومن ثم كالت بمكيالين في التعامل بين البشر . لكن بعد كل ذلك يسمى " توماس مور " – جزيرته المدينة الفاضلة – " يوتوبيا " أي في عالم الخيال ، أو لا وجود لها ، لكنا نقول له : لا ! يا سير توماس مور ؟ !

إنك لم تأت بجديد ، لكنك أخذت الفكرة عن الفارابي في – آراء أهل المدينة الفاضلة ، وإنما الجديد هو إنكارك للمدينة الفاضلة ، وادعاؤك أنها مدينة لا وجود لها ، وأنها إنما وجدت في عالم الخيال .

والحقيقة أنها وجدت على عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الراشدين ، وسنبيَّن في الصفحات التالية الأسس التي أقام عليها النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة ، حتى نقف على ما قدمه الإسلام للعالم من مجتمع راق نظيف متحاب ، متعاون متكافل ، يدعو إلى السلم ويدفع العدوان رغم أنف بابا الفاتيكان " بندكتو السادس عشر " الذي يدعي – حقداً وكمداً – أن الإسلام لم يقدم للعالم شيئاً سوى العنف والإرهاب والكراهية والعدوان " فسحقاً لأصحاب السعير "[١٦]

الحالة الراهنة في يثرب عند الهجرة النبوية إليها

قبل أن نتحدث عن مجتمع المدينة الفاضلة أو الدولة المثلى التي أقامها النبي صلى الله عليه وسلم في يثرب نتبين : أولاً حالها عند الهجرة فنقول :

لم يكن معنى الهجرة إلى يثرب هو التخلص من الفتن والاستهزاءات التي لحقت بالمسلمين في مكة من قبل مشركي قريش فحسب ، بل كانت الهجرة مع هذا تعاونا على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن ، قوامه التوحيد ونشر العدل والمساواة في بلاد العرب أولاً ، ثم في العالم أجمع ثانياً ، مجتمع مؤسس على الأخوة الصادقة والمحبة والوئام ، وقبل كل شيء على عقيدة التوحيد الصحيحة المنبثقة من عالمية القرآن والسنة ، ولذلك أصبح فرضاً على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد ، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفعة

شأنه ، ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإمام والقائد والهادي في بناء هـذا المجتمع ، وكانت إليه أزمّة الأمور بلا نزاع في يثرب ، بعد أن أصبحت دار إقامة للـنبي و أصحابه الكرام ، الذين هاجروا إليها من مكة وضواحيها ، ليكونوا جنداً مخلصين لدولـة الإسلام الجديدة ، وللدعوة الإسلامية التي اتخذت من هذه المدينة المباركة مقراً لها ومنطلقـاً إلى أنحاء العالم أجمع[١٧] .

وأرى ، من واجبي – إيفاء بحق الموضوع محل البحث – أن ألقي ضوأ على ذلك المجتمع الجديد الذي استقر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، لنـرى من هم الذي كانوا يسكنون في تلك البلدة وما هي أصولهم وجذورهم ، وطبائعهم ، وخصالهم ، حتى يسهل علينا فهـم ما جرى في مدينة الرسول من الانقلاب الجذري بواسطة الإسلام ، وما هي العقبات الـتي واجهها الرسول في سبيل بناء هذا المجتمع الجديد ، المؤسس على الإسلام عقيدة ونظامـاً . فأقرر : أن بلدة يثرب كانت من قديم الزمان واحة خضراء ، خصبة التربة كـثيرة الميـاه ، وكانت تحيط بها الحرّات من جهاتها الأربع ، وكـان يسـكنها اليهـود ، وقبيلتـا الأوس والخزرج، فضلاً عن سكانها الجدد المهاجرين إليها مسلمين من أتباع النبي صلى الله عليـه وسلم[١٨] ، إذن فالأقوام التي كان يواجهها النبي في المدينة كانت على ثلاثـة أصـناف ، يختلف أحوال كل منها بالنسبة إلى الآخر اختلافاً واضحاً ، وبالتالي تحتاج كل واحدة منـها إلى معالجة خاصة ، وهذه الأصناف الثلاث هي :

١– أصحابه الصفوة الكرام البررة (مهاجـرون وأنصـار) .

٢– المشركون الذين لم يؤمنوا بعد ، وهم من صميم قبائل المدينة .

٣– اليهود على اختلاف طوائفهم وقبائلهم .

أما الصنف الأول : (أصحاب النبي) – وخاصة المهاجرين – فإن ظـروف المدينـة بالنسبة إليهم كانت تختلف تماماً عن الظروف التي مروا بها في مكة ، فهم في مكـة كـانوا متفرقين في بيوتات شتى ، مقهورين أذلاء مطرودين ، أمرهم بيد أعدائهم في الدين ، ولذا لم يستطيعوا أن يقيموا مجتمعاً إسلامياً جديداً رغم اجتماعهم على كلمة جامعة ، وهي كلمـة

التوحيد ، أما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم من أول يوم ، حيث لم يكن عليهم سيطرة لأحد من الناس ، ومن ثم فقد آن لهم أن يكوِّنوا مجتمعاً إسلامياً جديداً ، يهتم بمسائل الحضارة والعمران والمعيشة والاقتصاد ، والسياسة والحكومة والسلم والحرب .. وما إلى ذلك من مسائل الحياة ، أي مجتمع يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي ، إنه مجتمع يمثل الدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون ألواناً من النكال طيلة عشر سنوات في مكة ، ولا يخفى أن تكوين مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يتم في يوم وليلة ، أو في شهر ، أو في سنة واحدة ، بل لا بد له من زمن يتكامل فيه التشريع والتقنين ، مع التثقيف والتدريب ، والتربية بالتدريج ،وكان الله كفيلاً بهذا التشريع ، كما كان رسوله صلى الله عليه وسلم قائماً بتنفيذه والإرشاد إليه ، وتربية المسلمين وفق هذا التشريع[١٩] : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)[٢٠]، وكان الصحابة أيضاً مقبلين عليه بقلوبهم يتحلّوْن بأحكامه ويستبشرون بها،: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)[٢١] .

ولما كانت جماعة المسلمين في المدينة مشتملة على قسمين : قسم هم في أرضهم وديارهم وأموالهم ، لا يهمهم إلا ما يهم الرجل وهو آمن في سربه ، وهم الأنصار ، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد[٢٢] . وكان بجانب هؤلاء قسم آخر – وهم المهاجرون – فاتهم كل ذلك ، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة ليس لهم ملجأً يأوون إليه ، ولا عمل يعملونه لمعيشتهم ، ولا مال يبلغون به القوامة من العيش ، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل ، بل يزداد يوماً بعد يوم ، ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة ، ومن ثم تزعزع ميزانها الاقتصادي ، خاصة وقد قامت الجهات المعادية للإسلام – في مكة وما حولها – بشبه مقاطعة اقتصادية ، قلّت لأجلها الواردات الغذائية ، وتفاقمت الحاجة[٢٣] .

٢ – وأما الفريق الثاني : وهم المشركون – من صميم قبائل المدينة – فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين ، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ، ويتردَّد في ترك دين الآباء (الوثنية) ولكن لم يكن يبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين ، فهؤلاء

أسلموا وأخلصوا دينهم لله بعد فترة قصيرة ، ولكن كان في هذا الفريق أيضاً – من يبطن شديد الحقد والعداوة ضد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، لكنه لم يكن يستطيع أن يناوءهم ، بل كان مضطراً إلى إظهار الود والصفاء لضعفه وجبنه ، وهو يبطن الكفر والعداء للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين (مهاجرين وأنصار) وهؤلاء هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، ويأتي على رأس هؤلاء عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب " بُعَاث " ، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله ، وكان على وشك أن يصير ملكاً على أهل المدينة ، فباغته مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، وانصراف قومه عنه إلى النبي ، فكان يرى أنه استلبه ملكه ، فأبطن العداوة ضد النبي صلى الله عليه وسلم لأن الظروف لم تكن تساعده على شركه الذي يُحْرَم بسببه الفوائد الدنيوية ، ولهذا أظهر الإسلام – بعد بدر – ولكن بقي مستبطناً الكفر ، وكان لا يجد مجالاً للمكيدة برسول الله صلى الله عليه وسلم و بالمسلمين إلا ويأتي بها ، يدعمه أصحابه ومن على شاكلته ممن حُرِموا المناصب التي كانت مرجوَّة لهم في ملكة ، وكان العداء الخفي (النفاق) أشد وأنكى على المسلمين من العداء المعلن من قبل قريش وحلفائها ، ولكن قيادة النبي صلى الله عليه وسلم وسياسته في بناء المجتمع الجديد كانت كفيلة بالقضاء على كل هذه العقبات [٢٤].

٣ – أما الفريق الثالث وهم اليهود : فقد كانوا نزحوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشوري ثم الروماني ، وشكل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية في يثرب والحجاز منذ القرن الثاني الميلادي ، وارتاد يهود " بني النضير ، وبني قريظة " منطقة يثرب ، واستقروا فيها لخصبها، وأهمية موقعها التجاري على طرق القوافل إلى الشام ، وكانت ديارهم بضواحي يثرب ، ومن القبائل اليهودية التي استقرت داخل يثرب يهود " بني قينقاع " الذين يقال عنهم إنهم كانوا عرباً تهوَّدوا [٢٥] ، وكان هؤلاء اليهود عبرانيين ، لكن بعد نزوحهم إلى الحجاز اصطبغوا بالصبغة العربية في الزِّي واللغة والحضارة ، حتى صارت أسماء قبائلهم و أفرادهم عربية ، وقامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصِّهرية ، ولكنهم حافظوا على عصبيتهم الجنسية العبرانية ولم يندمجوا في العرب كلياً ، بل كانوا يحتقرونهم ويسمُّونهم "

أميين " ، أي وحوش سُذّج وأراذل متأخرون ، كما كانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم يأكلونها كيفما شاءوا . ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [٢٦] ، ولم يكن لهم تحمُّس في نشر دينهم ، وإنما جل بضاعتهم الدينية هي : الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها ، مما عدُّوا به أنفسهم أصحاب علم وفضل ، كما كانوا ذوي خبرة في بناء الحصون ، وفي فنون الكسب والمعيشة ، كالزراعة والصناعة وتربية الماشية ، وصناعة النسيج ، وآلات الحرب ، كما مهروا في التجارة والتعامل بالربا . فكانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم مقابل ارتهان أرضهم وحوائطهم ، ثم لا يلبثون إلا أعواماً حتى يتملكونها ، وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد ، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ، ويوقدون دائماً نار الحرب بين الأوس والخزرج في يثرب ، ثم يزودون الطرفين بقروض ربوية ثقيلة ، حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة ، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين : الأولى : المحافظة على كيانهم اليهودي قوياً أمام أعدائهم المتحاربين ، والثانية : إنفاق سوق الربا واستمراره ليأكلوه أضعافاً مضاعفة ، ويجنوا الثروات الطائلة من ورائه ، ولقد حاول اليهود عبر العصور تفتيت وحدة الأوس والخزرج ، وإثارة الحروب بينهم حتى كان يوم " بعاث " – كما ذكرنا – وكان عدد رجالهم المقاتلين يجاوز الألفين ، دخل أكثرهم (بنو النضير وبنو قريظة) هذه الحرب إلى جانب الأوس ، لكي يضعفوا الخزرج بوصفها القوة الكبرى في يثرب ، ومن ثم يبقى لهم السيادة على الطرفين ، وبالطبع فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد ، لأن النبي المنتظر جاء من غير جنسهم ، كما أنه جاء بدين جديد يعمل على إطفاء نار الحرب بين الأوس والخزرج ، وتوحيدهم في مؤاخاة تجمعهم والمهاجرين المسلمين في أمة واحدة .

إن النبي صلى الله عليه وسلمجاء من غير اليهود ، فأثار ذلك حقدهم عليه وحسدهم له، كما أن القرآن الكريم أخذ يعدد مخازى اليهود ، ونكوصهم عن الدين الحق ، لذلك أبطن اليهود أشد العداوة للإسلام ورسوله منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين [٢٧] ، ولم يكن لهم حق في عداء الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم

يعرفون أنه نبي مرسل ، جاء ذكره وعلامته في التوراة ، كما شهد بـــذلك عبـــد الله بـــن سلام[٢٨]، فضلاً عما اعترف به حيي بن أخطب لأخيه أبي ياسر ، بأنه هو النبي ، كما ورد في حديث صفية أم المؤمنين –رضي الله عنـــها – الـــذي نقلـــه ابـــن إســـحاق ، وأورده البخاري.[٢٩] وهذه أول تجربة تلقاها النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود في إنكار دعوته منذ أول يوم دخل فيه يثرب ، أضف إلى كل ذلك عداء قريش ومشركي العرب المســـتمر منذ سنوات[٣٠] .

هذه هي القضايا و المشاكل التي كان يواجهها رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم والمسلمون في يثرب حين دخلها بصفته رسولا هادياً وإماماً قائداً ، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدور النبوة والقيادة في المدينـــة الجديدة ، وأدلى إلى كل قوم بمـــا كـــانوا يستحقونـــه من الرأفـــة والرحمة ، أو الشدة والنكال ، حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهلـــه في بضع سنوات ، قضاها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه في بناء مجتمع المدينـــة الفاضلة [٣١] .

الأسس التي أقام عليها النبي محمد صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة الفاضلة في يثرب بعد الهجرة النبوية

إن بناء المجتمع الإسلامي يقوم على أساس خضوع المسلمين في أفعالهم الاختيارية لشرع الله ومنهاجه ، لأن الإسلام في جوهره دين عقيدة وشريعة ، وإذا كانت عقيدة الإيمان هي التصديق القلبي للنبي صلى الله عليه وسلم فيما بلّغ عن ربه مع النطق بالشهادتين ، فإن الشريعة هي العمل المصدَّق للعقيدة ، والدال على هذا الإيمان ، الذي يظهر أثره في السلوك البشري ، وسلوك الإيمان لدى ذويه يقتضي السمع والطاعة لما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم كان بناء المجتمع الإسلامي وتأسيس دولته المثلى في المدينة ، يعتمد على أسس وركائز منهجية تضمن له الاستقرار والاستمرار[٣٢] .

وهذه الأسس هي : بناء المسجد النبوي ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ثم الإخاء الإنساني بالتعاهد مع اليهود ومع من حول المدينة من الأعراب ، إرساءً لقواعد التعايش السلمي ، والتعاون الدولي بين البشر ، وسبق هذه الثلاثة ، أساس مهم هو السمع والطاعة لله ولرسوله ، وأعقبها عامل أهم هو الجهاد في سبيل الله ، للحفاظ على هذا البناء ، حماية للدين واستقراراً للدولة ، وتأمين أفراد المجتمع من أعدائهم في الداخل والخارج . ولنبدأ بالأساس الأول .

[١- بناء المسجد النبوي]

دخل النبي صلى الله عليه وسلم يثرب مهاجراً من مكة[٣٣] ، ونزل في بني النجار يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ (الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م) ، نزل في أرض أمام دار " أبي أيوب خالد بن زيد النجّاري الخزرجي " في المكان الذي بركت فيه ناقته ، وقال : " ها هنا المنزل إن شاء الله " ، فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيفاً إلى شهر صفر من السنة الثانية للهجرة ، حتى بُنِيَ

المسجد ، والحجرات لزوجاته فانتقل إليها وكانت أول خطوة خطاها النبي صلى الله عليه وسلم هي إقامة المسجد النبوي .

ففي المكان الذي بركت فيه ناقته ، وهو – يومئذ – مربد لغلامين يتيمين من بني مالك ابن النجار ، اشتراه النبي صلى الله عليه وسلم من كافلهما معاذ بن عفراء ، وأمر ببناء مسجده في هذا المكان[٣٤] للصلاة فيه والمسلمين معه ، بعد أن كان يصلي حيث أدركته الصلاة ، ويصلي في مرابض الغنم ، وكان في ذلك المكان قبور المشركين ، وكان فيه خِربَ ونخل وشجرة من الغرقد ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت ، وبالخِربَ فسويت ، وبالنخل والشجرة فقطعت ، وصُفّت في قبة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضادتاه من حجارة ، وأقيمت حيطانه من اللّبن والطين ، وجعلوا سقفه من جريد النخل ، وعَمُدَه الجذوع ، وفرشت أرضه من الرمال والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب وكانت طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه ، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع وبنى النبي صلى الله عليه وسلم إلى جانبه بيوت أزواجه باللّبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب – كما ذكرنا – وكان النبي هو وأصحابه ينقلون اللبن ، ويقول وهو ينقل اللّبن والحجارة مع أصحابه :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبرّ ربنا وأطهر

كما كان يقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فأغفر للأنصار والمهاجرة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بنفسه ليرغب المسلمين في العمل ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار بدأب ، وكانوا يرتجزون :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منّا العمل المضلّل[٣٥]

ولكن .. لماذا كان المسجد أول لبنة يضعها النبي صلى الله عليه وسلم في بنيان الدولة الإسلامية ؟ !

إن المسجد وإن اشتق اسمه من أطهر شعيرة في الصلاة ، وهي السجـــود علـــى الأرض خضوعاً وانكساراً لله – لا لغيـــره – إلا أنه أضحى مكاناً لشعائر الصلاة كلهـــا ، سجوداً وركوعاً ، وذكراً وعبادة ، فضلاً عن كونه داراً للاعتكاف ، وجامعـــاً لســـماع الخطبـــة والوعظ كـــل جمعـــة ، ومكاناً لتلاوة القرآن والذكر ، ومنتدى يجتمع فيه المسلمون عندما يحزبهم حازب ، أو يطرقهم أمر ، فيتنادوا : الصلاة جامعة ! .

إن مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بناء المسجد فور وصوله إلى المدينة ، يبيِّن لنـــا الدور الأساسي للمسجد في بناء المجتمع الإسلامي في كل زمان ومكان ، وعندما نتصـــفح تاريخ المسجد النبوي في عصر الرسالـــة ، يتبيـــَّن لنا جلياً أنه لم يكن مجرد مكان للعبادة و فقط ، بل تحققت بواسطتـــه أهداف إسلامية عظيمة شملت مهام المجتمع والدولة كلهـــا ، ويمكن أن نجملهـــا فيما يلي :

١ – كان المسجد مدرسة لتعليم النشء القراءة والكتابة والحساب ، وحفـــظ القـــرآن الكريم ومبادئ العلوم ، وقد حضَّ النبي صلى الله عليه وسلم على التعليم في المسجـــد فقال صلى الله عليه وسلم : " من دخل مسجدنا هذا ليعلم خيراً أو ليتعلمه كـــان كالمجاهـــد في سبيل الله "[٣٦] ، وقوله أيضاً : " إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنما هي لذكر الله ومن والاه ، وعالماً ومتعلماً "[٣٧] ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه[٣٨] " ، كما أنه جعل فداء بعض أسرى بدر تعليم عدد مـــن أبنـــاء المسلمين القراءة والكتابـــة في مدرسة المسجد[٣٩] .

٢ – كان المسجد جامعة لإلقاء العلوم وتلقيهـــا ، تعلم فيها الصحابة الكرام القـــرآن الكريم والسنة النبوية ، على يد معلمهم الأول النبي صلى الله عليه وسلم وتخرج منه كـــثيرٌ من الصحابة ، والتابعيـــن من الأئمـــة الذين تلقوا على أيدي الصحابة في جميـــع العلـــوم والآداب . وقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتربية في جامعة المسجد ، بل إنه هو الذي وضع أصول التربية الحديثة في هذه الجامعة ، وليـــــس " دور كـــاييم " ، ولا " سبنسر " ولا " روسو " كما يزعم المستشرقون والمستغربون – ، فإذا كانت أصول التربية الحديثة تقوم على وسائـــل ثلاث هي :

أ – إثارة شوق المتلقي بالسؤال ثم الإجابـــة .

ب – إثارة شوق المتلقي بالسؤال وحجب الإجابـــة حتى يكرَّر السؤال ، فتأتي الإجابة لترسخ في ذهن المتلقي فلا ينساهـــا .

ج – والثالثـــة التدريب العملي بعد الدرس النظري[٤٠] ، إذا كانت تلك أسس التربية ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم هو مؤصل ذلك كله ، وبالمثال يتضح المقال :

ففي المقام الأول – السؤال ثم الإجابـــة – يأتي ما ثبت عن أبي واقـــد الليثـــي : " أن ثلاثـــة نفر جاءوا المسجد والنبي في حلقة الدرس ، فأقبل أحدهم على الحلقـــة مســـرعاً ، وجاء الثاني على استحياء ، وانصرف الثالث عن الدرس ، ولم يلفت ذلك نظر واحد مـــن الصحابة ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : ((ألا تسألوني أخبركـــم خبـــر هـــؤلاء الثلاثـــة ؟ فقالوا أخبرنا يا رسول الله ! فقال صلى الله عليه وسلم : أما الأول : فقد أقبـــل على الله فأقبل الله عليه ، وأما الثاني فاستحيا من الله فاستحيا الله منـــه ، وأما الثالث : فقد انصرف عن الله فانصرف الله عنه))[٤١] .

وفي المقام الثاني – إثارة شوق المتلقي بالسؤال ثم حجب الإجابة عنه حتى يلح في سؤاله – يأتي حديث سعيد بن المعلا في شأن سورة الفاتحـــة ، حين قال له النبي صـــلى الله عليـــه وسلم : " يا سعيـــد لأعلمنك شيئاً لا تسأل عنـــه أحداً " فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الدرس سأله ابن المعلا يا رسول الله : قلت لي لأ علمنك شيئاً لا تسأل عنه أحداً. فسكت النبي صلى الله عليه وسلم حتى كرر ابن المعلا سؤاله ثلاثاً . فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بعدها أنه على شوقٍ لتلقي الإجابة على سؤاله ، قال صلى الله عليه وسلم : " يا سعيد عليك بالسبـــع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتـــه "[٤٢] .

وفي المقام الثالث – التدريب العملي – ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلِّـــم أصحابه ، فإذا برجل جاء المسجد يصلي ، فأسرع في صلاتـــه ولم يتم ركوعها وســـجودها حتى يلحق بالدرس ، فلما جاء الحلقة ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ارجع فصـــلِّ فإنك لم تصلي " . فعاد الرجل فصلى مثل صلاته الأولى ، ثـــم جاء النبي صلى الله عليـــه

وسلم فقال له ثانية " ارجع فصلِ فإنك لم تصلي " . فعاد الرجل ليصلي لكنه لم يزد على ما فعله في المرتين السابقتين ، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له مثل ما قال سابقاً ، فقال الرجل : يا رسول الله لم أحسن غير هذا ، فعلمني كيف أصلي ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا دخلت في صلاتك فكبر بتهليلٍ ، واقرأ بترتيل ، واركع بتواضع ، واسجد بتخشع ، وافعل ذلك في صلاتك كلها ، فتكون قد صليت"[٤٣]. ففعل الرجل بعد أن علمه النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد أثمرت تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه وأتباعه ، فذلكم السِّبْطين : - الحسن والحسين – رأيا أعرابياً يتوضأ فلا يحسن الوضوء ، فأرادا أن يعلماه كيف يتوضأ وضوءاً صحيحاً ، دون تجهيله أو تجريحه ، فقال له الحسن : " أي عماه ! إني وأخي نحتكم إليك فيمن فينا يحسن الوضوء " ؟ فقال الرجل : أي بني توضأ فبدأ الحسن بالوضوء ثم أعقبه الحسين ، فنظر الرجل إليهما قائلاً : " لقد أصبتما وأنا الذي أخطأت ، جزاكما الله خيراً فيما علمتماني "[٤٤].

٣ – كان المسجد منتدى لتناشد الأشعار والآداب ، إذ دخل كعب بن زهير بن أبي سلمى على النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد وأنشده قصيدته التي بدأت بالغزل: " بانت سعاد فقلبي اليوم متبول " ولم ينهه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك . كما كان حسان بن ثابت يجلسه النبي صلى الله عليه وسلم على مقعد خصَّصه له بجوار منبره ، ينشد الأشعار داخل المسجد[٤٥]. ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة أراد أن يخرج حسان من المسجد ، فحاجَّه حسان قائلاً : يا عمر : أجلسني من هو خيرٌ منك لأنشد الشعر هنا ، فكيف تخرجني أنت ؟! فقال له عمر : صدقت ، وأقرَّه في المسجد[٤٦] .

٤ – كان المسجد دار قضاء ، ومحكمة للفصل بين الخصوم ، ودار فُتْيا فيما يترل به الوحي متلواً وغير متلو ، ودار شورى فيما ليس فيه وحي :جلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم ليقضي بنفسه بين المتخاصمين ، كما أناب عنه من يقوم بذلك ، كأبي بكر وعمر ، وكان عمرٌ أيضاً ينيب علي بن أبي طالب ليقضي بين الناس في محكمة المسجد ، حتى قيل : " قضية ولا أبا حسنٍ لها " ومما يؤثر في هذا المقام أن " كعب بن مالك "، و" عبد الله بن

حدرد " اختصما في المسجد ، حيث كان ابن مالك قد أقرض ابن حدرد مالاً ولم يرد القرض ، فجاء المسجد وطلب إليه أن يرد المال ، وعلا صوتهما والنبي صلى الله عليه وسلم في بيته فسمعهما ، فخرج إليهما ، فأشار إلى كعب قائلاً : "حطّ عنه الشطر "؟ فقال : أفعل يا رسول الله ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى ابن حدرد وقال : " قم الآن واقضه حقه" ؟ فقال : أفعل يا رسول الله [٤٧] ، وكان المسجد معتقلاً للأسرى ومحبساً للخاطئين : فهذا " ثمامة بن أسال " الذي كان يتخطف قوافل المسلمين ويغير على سرحهم ، وظفر به المسلمون فأمسكوه ، وأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقيده إلى إحدى سواري المسجد ، وكان يمر عليه فيقول : " ما صنع الله بك يا ثمامة ؟ فيقول خيراً يا محمد : إن تقتل تقتل صاحب إثم ، وإن تعف تعف عن ذي رحم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أطلقوا ثمامة ؟ فأطلقوه " [٤٨] وعفا عنه النبي فذهب واغتسل وعاد مسلماً . أما " أبو لبابة بن عبد المنذر " الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قريظة بناء على طلبهم – وأخبرهم أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم سيذبحهم إن سلموا ولكنّه أحسنَّ بخطئه وأنه خان الله ورسوله والمسلمين . وندم على فعلته ، وحضر إلى المسجد فربط نفسه في سارية من سواريه ، وأقسم ألا يحله أحد حتى تأتي براءته من السماء لتؤكد توبته[٤٩] من فعلته ، وظل حبيساً في المسجد ما ينيف على الشهر ، حتى أنزل الله قرآناً يؤكد قبول توبته : ((وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) [٥٠]

٥ – كان المسجد داراً للضيافة ومقراً لاستقبال الوفود القادمة إلى المدينة ، حيث استقبل فيه النبي صلى الله عليه وسلم وفد ثقيف وضيَّفهم فيه ، كما استقبل وفد نصارى نجران ، ووفد الحبشة وقدم لهم الضيافة ، وأسمعهم القرآن فأسلموا ، وفاضت عيونهم من الدمع [٥١] وأنزل الله فيهم : ((لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّـهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ)) (٥٢).

٦ – كان المسجد منـــزلاً للفقراء ، ومطعماً للمساكيـــن ، وســـكناً للمحتاجيـــــن ، فكان دار من لا دار له ، ومطعم من لا طعمة له ، بنى النبي صلى الله عليه وسلم في مؤخرة المسجد صُفَّة " مصطبة " أقام فيها هؤلاء الفقراء ، وعلق في سقف المسجد كلاليـــب بهـــا سبائط البلح ، وعناقيد العنب ، ليقتات منها هؤلاء ، ثم يبيتون في الصفة ، وهم الذين سُموا بأهل الصُّفَّة ، أو أصحاب الصُّفَّـــة (٥٣). ولم يمنع النبي صلى الله عليه وســـلم رجـــالهم ولا نساءهـــم من المبيت في المسجد ، بل أمر أصحابـــه بذلك ونهاهـــم عن المنـــع قائلاً : " لا تمنعوا عباد الله إماء الله من المبيت في مساجد الله " (٥٤).

٧ – كان المسجد مصنعاً لصناعة آلات الجهاد ، ومستشفى لتمريض الجرحى ومـــداواة المرضى وداراً لعقد الأنكحـــة ، ومقراً لقيادة الجيش وقاعدة لإدارة الشـــؤون السياســـية والعسكرية ، فقد جلست النسوة فيه يثقفن الرماح ويرققن السهام ويحددْن السيوف ، كما قمن بتمريض جروح المصابين من المجاهديـــن ، كما فعلت صفية عمة النبي صلى الله عليـــه وسلم ورفيدة الأسلمية التي داوت جروح سعد بن معاذ يوم الخندق ، وكمـــا فعلـــت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (٥٥)، كما كانـــت تشهر الأنكحة في المسجد أيضاً ، ومنه يعلن الجهاد ويخرج اللواء ، وفيه تعقـــد المهادنـــات والمعاهدات(٥٦) .

والخلاصة أن المسجـــد قد جمع كل هذه المهام والوظائف المنوطة بالدولة ، واللازمة لبناء المجتمع ، وهذا يبينٌ : لماذا بدأ النبي صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد ! والعمل فيه بيده مع أصحابه داعياً لهم بالرحمة والغفران ، قبل أن يفكر في بناء دار لنفســـه ، كما كان يحـــضّ المسلمين على الإسهام في بناء المساجد فقال صلى الله عليه وسلم : " من بني لله مســـجداً ولو كمفحـــص قطاة بني الله له بيتاً في الجنـــة(٥٧) " . كما حضّ المسلمين علـــى انتظـــار الصلاة في المساجد ، وسماها الرباط ، تشبيهاً بمـــن يرابطون في الثغـــور لحمايتهـــــا مـــن الأعداء ، كما طلب إلى المسلميـــن توقير المساجد ، ونهاهم عن الكلام فيها بغير ذكر الله ،

فقـــال صلى الله عليه وسلم : ((الكلام في المساجد يأكل الحسنات كما تأكـــل النـــار الحطب [٥٨])) كما نهى عن مجالسة من يلغون في المسجد بكلام دنيوي ، فقال صـــلى الله عليه وسلم : ((يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي إلى المساجد ، فيقعدون فيهـــا حلقـــاً ، ذكرهم الدنيا وحبُّ الدنـــيا ، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة [٥٩])) . كما نهـــى عـــن البصاق والنخامة في المسجد ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((البزاق في المســـجد خطيئـــة وكفارتها دفنها[٦٠])) ، وقد أمر الله بعمارة المساجد فقال تعالى : ((إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّـــه مَنْ آمَنَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِـــكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)) [٦١] .

كما نهى عن تخريب المساجد أو السعي في خرابها ، وتوعَّد الساعين في خرابها بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فقال تعالى : ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّه أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) [٦٢] .

تلكم هي رسالة المسجد الجامع في بناء الدولة الإسلامية الأولى ، والتي استمرت في كل المساجد في أنحاء الدولة الإسلامية فيما بعد ، وانتشرت من المدينة ومكة إلى البصرة والكوفة ودمشق وبغداد والزيتونة والقيروان وفاس والفسطاط ، والقاهرة . ومـــا زال جامعهـــا " الأزهر " يؤدي تلك الرسالة إلى اليوم منذ أكثر من ألف عام .

فأنت أخي القارئ ترى أن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كان بسيطاً في المبنى ، لكنه عظيم المعنى في الأهداف والغايات ، ومع تواضعه وبساطتـــه ، ربَّى فيه النبي صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام ، والتقى فيه بالمسلميـــن من جميع القبائل العربية – المشـــتَّة قبـــل الإسلام – لينسيهم النزعات الجاهلية ، والفوارق القبليـــة ، ويربيهـــم على الخير والحـــب والتآلف ، لينصهروا في بوتقة واحدة متماسكة ، ويؤلفوا أمة واحدة موحـــدة ، تدوس على رؤوس الكفر والشرك والطغيان ، وتحمل دعوة التوحيد إلى أرجاء العالم بالحكمة والموعظـــة الحسنـــة [٦٣].

ونخلص من كل هذا إلى أنّه : كان لاهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية بالعلم والتعليم ، والعلماء والمتعلميـــن ، أثر كبير في سلوك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الـــذين جلسوا حوله في المسجد ، واستمعوا إلي هذه التوجيهات المتكررة من القرآن ، والـــحث المتواصل من الرسول صلى الله عليه وسلم علي العلم ، فكانت استجابتهم الكبيرة للجلوس بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم في المسجد ليتعلموا أمور دينهم ويتفقهوا فيه، ومن ثم قامت حركة علمية في المدينة المنورة ، كان أستاذها هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان التلاميذ هم أصحابه – رضوان الله عليهم – وبعد موته اقتدي به أصحابه في القيـــام بتعليم الناس في المسجد النبوي ، فلقد شهد المسلمون أصحاب النبي – صـــلى الله عليـــه وسلم – معلّمين ومتعلمين قبل أن يحملوا السيوف للجهاد ، ثم رأوا علمـــاء القـــرن الأول يتصدرهم أبناء الصحابة العظماء، وعلي أيديهم تعلم فقهاء المدينة السبعة في القرن الثـــاني للهجرة[٦٤] .

كما رحل كثير من هؤلاء الصحابة إلي البلاد التي فتحها المســـلمون ، لينشـــروا فيهـــا الإسلام ويعلموا الناس ، وأقام كلِ واحد من هؤلاء العلماء مركزا علميا بالبلد الذي نـــزل فيه ، ومن مشاهير علماء الصحابة : عبد الله بن عمر ، وكانت حلقتـــه العلمية في المدينة ، وعبد الله بن عباس وكانت حلقته في مكة ،ومعاذ بن جبل وكانت حلقته في اليمن ، وأبـــو موسي الاشعري وكانت حلقته في البصرة ، وعبد الله بن مسعود وكانت حلقته في الكوفة، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكانت حلقته في مصر ، وهكذا بدأت حركة العلم والتعليم في الإسلام تمتد بامتداد البلاد التي يفتحها جند الإسلام ، ولهذا لم يمرّ وقت طويـــل حـــتي وجدنا حركات علمية إسلامية تزدهر في كل البلاد الإسلامية . خاصة وقد تـــوفرّت كـــل العوامل والأسباب التي أدت إلي تلك النهضة العلمية ، ومنها: رعاية الحكـــام والأغنيـــاء للتعليم والعلماء ، وإنشائهم الكثير من المكتبات والمدارس والجوامع والأربطـــة والزوايـــا، ووقف العقارات والمنقولات علي العلم وأهله ، وتشجيع حركة الترجمة وامتزاج الثقافات، والحرية الفكرية التي شملت كل مناحي العلوم [٦٥].

[٢ – المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار]

الإخاء الإسلامي .. هو الأصل الأصيل في بناء دولة الإسلام وقيام الأمـــة الإسلامية..

ولقد كان العرب – والناس معهم – على شفا حفرة مـــن النـــار .. متشاكســـين .. متنافريـــن .. متحاربين سنين طويلة .. من أجل ناقة ، فنزلت الآيات .. قيل لهم : تحابوا.. فتحابوا . قيل لهم : تآخوا .. فتآخوا ..

ثم قيل لهم : انفروا .. فهبوا خفافاً وثقالاً ، وتنـــزّلت الآيات .. فقالوا : سمعنا وأطعنا .. ولم يقولوا سمعنا وعصينـــا . ومؤمنو مكة – على اختلاف قبائلهم – ما عرفنا لهم اسماً في التاريخ ، إلا المهاجرين.

ومؤمنو المدينة ، على– اختلاف قبائلهم – ما عرفنا لهم اسماً في التاريخ إلا الأنصـــار . وكانوا قبلها فرقاء متشاكسيـــن ، فإذا بالفرقاء المتشاكسيـــن أمة ودولة [٦٦] .

والإسلام لم يكتف بإطلاق اسم المهاجرين .. على المؤمنين من أهل مكة المهـــاجرين إلى المدينة . ولم يكتف أيضاً بإطلاق اسم الأنصار على قبيلتي الأوس والخزرج . " أبناء قيلة ". الذين دخلوا في الإسلام .. مع أن إطلاق الأنصار والمهاجرين .. كافياً لإزالة كل ما يؤدي إلى التعصب ، لكن نعتوا جميعاً بالصادقين والمفلحيـــن .

ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في البناء الأخوي الكامـــل .. ليقـــيم دولـــة الإسلام على أساس سليم .

قال ابن إسحاق:

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ، من المهاجرين والأنصـــــار ..

فقال – فيما بلغنا – : ((تآخوا في الله أخوين أخوين)) [٦٧] ؟

قال ابن القيـــم : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصـــار .. على المواساة ، والتوارث بعد الموت دون ذوي الأرحام ، فلما أنزل الله – بعـــد بـــدر – (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) [٦٨] نُسِخَ التوارث دون عقد الأخوة[٦٩] .

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب العصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا الإسلام ، و أن تسقط فوارق النسب واللّون والوطن ، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه ، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ، وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[٧٠] .

فقد روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فاقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان فانظر أعجبها إليك فسمها لي ، أطلقها ، فإذا انقضت عدتها تتزوجها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، وأين سوقكم ؟ فدلُّوه على السوق ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغد ، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة ، فقال النبي : صلى الله عليه وسلم " فيم يا عبد الرحمن ؟ قال : يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار . قال كم سقت إليها ؟ قال : وزن نواة من ذهب ، فقال النبي : – صلى الله عليه وسلم – ، أو لِمْ ولو بشاة [٧١]" .

قال تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [٧٢] .

لقد بلغ المسلمون الأوائل في الإيثار – بكل ما تحمله كلمة إيثار من معنى ومفهوم ومدلول– . بلغوا درجة عليا ، ومكانة عظمى .. بما وقر في قلوبهم من إيمان ، وبما أشرق في نفوسهم من يقين ..

إن قوة الإيمان ، والتصديق برسوله صلى الله عليه وسلم تجعل النفس الإنسانية ، تشرق بالكثير من صفات الخير ، وتتخلّق بالآداب والفضائل العظيمة ، ولقد صنع ذلك الإيمان وهذا التصديق جماعة ، اصطبغ سلوكهم بالشمائل الجليلة .. فكانوا يؤثرون

إخوانهم بأموالهم وديارهم على أنفسهـــم ، ويتنازلون عن قسْمهم في الغنائم من أجلهم ، ويقدِّمون حاجة إخوانهم على حاجتهم ، حباً لهم ، ورغبة في أخوّتهم.. [٧٣]

والإيثار في الإسلام .. هو : تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيويـــة ، رغبـــة في الحظوظ الدينية وذلك ينشأ عن قوة اليقين وتوكيد المحبة ، والصبر على المشقة .. يقـــال : آثرته بكذا ، أي خصصته به ، وفضّلته ،[٧٤] والمعنى أيضـــاً .....

والذين سكنوا المدينة ، وأشربت قلوبهم حب الإيمان ، من قبل هجرة أولئك المهاجرين.. لهم صفات كريمة ، وشيم جليلة ، تدل على كرم النفس ، ونبل الطباع[٧٥]ولـــذا كـــانوا يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهـــم إلى ذلك، وهؤلاء تصدَّقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مـــع خصاصـــتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه[٧٦] !!

وجاء في الأثر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قسم أموال بـــني النضـــير علـــى المهاجرين . ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر : أبا دُجَانَة (سماك بن خرشة) وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمَّة .

وقال لهم : ((إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديارکم ، وشاركتموهم في هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يُقسم لكم شيء من الغنيمـــة)) .

فقالت الأنصار : "بـــل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة دوننـــا ، ولا نشاركهم فيها "[٧٧]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للأنصار :

((إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم)) .

فقالوا : أموالنا بيننا قطائع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أو غير ذلك " ؟

قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟

قال : ((هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم إياه وتقاسمونهـــم التمر)) .

فقالوا : نعم يا رسول الله .. نكفيكهم العمل ونقاسمهم الثمـــر [٧٨]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قالت الأنصار للرسول صلى الله عليه وســـلم : أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل .

فقال الرسول : لا ..

فقال المهاجرون : أتكفونا المؤونة ونشارككم في الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا ! " [٧٩]

نعم .. إن الإيمان الصادق ، الذي صادف قلوباً هُيِّئت له . تمكن فيها ونما وترعـــرع ، وأشرقت آثاره على من حولها ، وسعى أصحاب هذه القلوب المؤمنة في بذل كل ما يرضي من حولهم من المسلمين ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من خـــيرة مـــن تمسك بفضيلة الإيثار .. حرصا على أخوة الإسلام ، وتودُّداً في ظلال الإيمان ..

قال تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَـــاءُ بَيْـــنَهُمْ) [٨٠]

وقـــال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) [٨١] .

وقد أجرى الرسول – صلى الله عليه وسلم – عقد المؤاخاة هذا في دار أنس بن مالك ، وقد اشتملت هذه المؤاخاة تسعين رجلاً ، (خمسة وأربعين من المهاجرين ، خمسة وأربعين من الأنصار) [٨٢] ، لأن المهاجرين جاءوا إلى المدينة لا مال لديهم ولا مسكن لهم ، فكان مـــن الضرورة الملحَّة أن يبحث لهم النبي – صلى الله عليه وسلم – عمن يـــأويهم في بيـــوتهم ويشركهم في معايشهم ، حتى تستقر أوضاعهم ، وتأنس قلوبهم ، بعد الوحشة الشديدة التي فرضها عليهم مشركو مكة ، ولم يبخل الأنصار على إخوانهم المهاجرين بشيء ، بل آثروهم على أنفسهم رغم خصاصتهم وحاجتهم – كما أسلفنا – ، وهذا يدل على ما كان عليـــه الأنصار من الحفاوة بإخوانهم المهاجرين ، كما يدل على ما كان عليه المهاجرون من تقـــدير لهذا الكرم حق قدره ، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم ، وحقاً كانـــت

هذه المؤاخاة حكمة فذّة ، وسياسة حكيمة ، وحلاً رائعاً لكثير من المشـــاكل الـــتي كـــان يواجهها المسلمون في المدينة(٨٣)

ولتأكيد هذه المؤاخاة كتب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتاباً بين المهـــاجرين والأنصار ، عُرِف بميثاق التحالف الإسلامي ، وهذه بنوده ملخصـــة :

١) هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قـــريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم فنلحق بهم وجاهد معهم .

٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣- المهاجرون من قريش – على ربعتهم – يتعاقلون بينهم ، وهم يفـــدون عـــانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف (الأنصار) على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلـــهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤) وإنّ المؤمنين لا يتركون مفرجاً (القتيل لا يُدْري من قتله) بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل ، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

٥) وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة (عطية) ظلم ، أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

٦) ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

٧) وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإنّ المؤمنين بعضهم مـــوالي بعـــض دون الناس.

٨) وإنّ من تبعنا من يهود فله النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

٩) وإن سِلْمَ المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

١٠) إن المؤمنين يبيئ بعضهم عن بعض (أي دم بعضهم كفؤ لدم البعض) بمـــا نـــال دمائهم في سبيل الله .

١١) وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن .

١٢) وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا (قتله بلا جناية توجب قتله) عن بيِّنة ، فإنه قود بـــه ، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

١٣) وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخـــر أن ينصـــر مُحْدثاً أو يؤويه وإن من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

١٤) وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد صـــلى الله عليـــه وسلم [٨٤] .

وقد كُتِبَتْ هذه الوثيقة بعد غزوة بدر الكبرى ، أما وثيقة اليهود فقد كتبت قبلها (بعد وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بخمسة شهور فقط) ، ومع ذلك فقد ذكرهما ابن هشام في وثيقة واحدة ، وجرى على ذلك أكثر المؤرخين ، على الرغم من أنهما وثيقتان كتبتا في زمانين مختلفين[٨٥] .

والمؤاخاة في الناس ، تكون على وجهين :

إحداهما : أخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار ..

والثانية : مكتسبة بالقصد والاختيار . فأما المكتسبة بالاتفاق .. فهي أوكد حالاً ، لأنها تنعقد عن أسباب تعود إليها . والمكتسبة بالقصد : تعقد لها أسباب ، تنقاد إليها ، وما كان جارياً بالطبع ، فهو ألزم مما هو حادث بالقصد[٨٦] !

فأما المكتسبة بالاتفاق فلها أسباب : (ما هو إلا له سبب ∴ يبتدى منه وينشعب)

١- وأول أسباب الإخاء : التجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلفان بهـــا . فـــإن قـــوى التجانس ، قَوِى الائتلاف به ، وإن ضعف كان ضعيفاً ، ما لم تحدث علة أخرى يقوي بهـــا

الائتلاف .. وإنما كان كذلك ، لأن الائتلاف ، بالتشاكل ، والتشاكل بالتجانس . فـــإذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ، ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف .. فثبت أن التجانـــس – وإن تنوع – . أصل الإخاء ، وقاعدة الائتلاف .

وقد روى يحيى بن سعيد ، عن عمر ، عن عائشة رضي الله عنهـــا ، عـــن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف [٨٧]" فالأرواح بالتجانس متعارفة ، وبفقده متناكرة [٨٨] .

قال الشاعر :

فلا تحتقـــــــر نفسي وأنت خليلها

فكل امرئ يصبو إلى من يشاكـــــــل

وقال أخر :

فقلت : أخي ، قالوا : أخ من قرابة

فقلت لهم : إن الشكـــــــول أقارب

نَسِيبي في رأيي وعزمي وهمتّي

وإن فرقتنا في الأصـــــــول المناسب

ثم يحدث بالتجانس .. المواصلة بين المتجانسين – وهي المرتبة الثانية من مراتب الإخاء .

وسبب المواصلة بينهما ، وجود الاتفاق منهما ، فصارت المواصلة نتيجـــة التجـــانس ، والسبب فيه وجود الاتفاق . لأن عدم الاتفاق منفر ، وقد قال الشاعر :

الناس إن وافقتهم عَذُبـــوا وإلا فإن جناهـــم مـــــــرٌ

كم من رياض لا أنيس بما تركت لأن طريقها وعْـــــرُ

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة .. وهي المؤانسة ، وسببها : الانبساط .

ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة .. وهي المصافاة ، وسببها : خلوص النيَّة ..

ورتبة خامسة .. وهي المودة وسببها : الثقة . وهذه الرتبة هي أوفى الكمال في أحـــوال الإخاء . وما قبلها أسباب تعود إليها . فإن اقترن بها المعاضدة .. فهي الصداقة . ثم يحـــدث عن المودة رتبة سادسة .. وهي المحبة ، وسببها : الاستحسان . فإن كان الاستحسان لفضائل النفس ، حدثت رتبة سابعة ـــ وهي الإعظام .

وإن كان الاستحسان للصورة والحركات ، حدثت رتبة ثامنـــة .. وهـــي : العشـــق ، وسببه الطمع ، وقد قال المأمون العباسي رحمه الله تعالى :

أول العشق مـــزاح وولـــع ثم يزداد إذا زاد الطمـــع

كل من يهوى وإن علت به رتبة المُلْك لمن يهوى تبـــع

وهذه الرتبة آخر الرتب المعدودة ، وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ، ولا حالة محدَّدة ..

لأنها قد تؤدي إلى ممازجة النفوس .. وإن تميزت ذواتها ، وتفضي إلى مخالطـــة الأرواح ، وإن تفارقت أجسادها .. وهذه حالة لا يمكـــن حصـــــر غايتـــها ، ولا الوقـــوف عنـــد نهايتها..

وقد قال الكندرى : " الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك " . ومثل هذا .. المـــروي عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – حين أقطع طلحة بن عبيد الله أرضاً ، وكتـــب له بها كتاباً ، وأشهد فيه ناساً ، منهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – .

فأتى طلحة إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وقال : والله ما أدري أنت الخليفة أم عمـــر ؟ . فقال : بل عمر لكنه أنا[٨٩] .

وأما المؤاخاة المكتسبة بالقصد .. فلا بد لها من داع يدعو إليها ، وباعث يبعث عليها .. وقد يكون الداعي لها من وجهين : (رغبة ... وفاقة)

فأما الرغبة : فهي أن يظهر من الإنسان فضائل تبعث على إخائه ، ويُتوسَّم بجميل يدعو إلى اصطفائه ..

وأما الفاقة : فهي أن يفتقر الإنسان لوحشة انفراده ، ومهانة وحدته ، إلى اصطفاء مـــن يأنس بمؤاخاته ، ويثق بنصرته وموالاته [٩٠] !! . ؟ ! وأعز ما تملكه الجماعات .. الإخاء .. فهو الرصيد الثابت ، والقاعدة الصلبة ، والمرتكز الصاعد .

والأخوَّة في الإسلام .. بلغت من السمو مبلغاً ، جعلها أساس الحياة ، ولا حياة بـــدون إخاء وإخوان .

والأخوَّة في الإسلام تقوم على أصول أصيلة وقواعد متينة (منها أيضـــا ....) :

٢- وحدة الأصل الإنساني ..

فالناس جميعاً على اختلاف أجناسهم ، وتمايز ألوانهم ، وتباعد أقطارهم . يرجعون إلى أب واحد وأم واحدة ، آدم وحـــواء .

ولطالما ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ، وبينها في أساليب شتى ، وآيات متعددة لكـــي تكون دائماً موضع الاعتبار والرعاية . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَـــرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [٩١]

وهذه آية عظيمة تقرر أصلاً من أصول الإسلام ، وهو المساواة بين الناس .

ولقد قررت هذه الآية مبدأ ضخماً من المبادئ الإنسانية السامية .. فهي من معجـــزات القرآن العظيم ، الذي أنزله الله ضياء للناس ونوراً يهتدون به ، وبرهاناً ساطعاً ينير السُّـــبل أمامهم[٩٢]!!

وكان العالم قبل انبثاق نور الإسلام . يموج في الظُّلم ، ويضطرب في الفساد ، وتســـوده الهمجية ، والعصبية الجاهلية ، وتخيِّم عليه ضلالات العصور القديمة ، وقد نشـــر الرعـــب أجنحته على الدنيا وزاد الفساد ، وتفاخر الناس بالأنساب ، وعاشوا تحـــت ظـــل نظـــام الطبقات في هذه الظلمة الداكنة ، ينبثق فجر الإسلام ، فتبدِّد أنواره تلك الغيوم السوداء.

وتنزل هذه الآية الكريمة ، لتقرر مبدأ إنسانياً عظيماً . وهو إعلان المساواة بين البشـــر ، كل البشر [٩٣] . ويهتم القرآن الكريم بالإنسانية والبشرية اهتماماً بالغاً .

و كلمة (الناس) يتكرر استعمالها في أساليب القرآن الكريم نحواً من مائة وأربعين مرة : كثير منها جاء خطاباً للبشر عموماً ، وكثير منها ورد دالاً على الجنس البشري .

وهذه أيضاً كلمة (الإنسان) .. تتكرر أكثر من ثمانين مرة .... في أساليب متنوعة .. عائدة بنا إلى أصل الإنسان .

ولا شك أن استعمال (الناس والإنسان) بهذا الاهتمام . يخلق في المسلم .. تربية إنسانية تعجز عنها أساليب فلاسفة العالم .. أمثال : "جان جاك رسو " ، " وهربرت سبنسر " ، " وجون ديوي " ، " ووليم جيمس " ..

حتى كلمة (البشر) الدالة على الجنس الإنساني الواحد ، تستعمل في القرآن الكريم ، في أكثر من خمس وثلاثين آية .

وهكذا يهتم القرآن الكريم بكل ما من شأنه أن يوقظ في الناس أحاسيس الإنسانية .

إن الإسلام جاء ليقيم بين البشر رابطة الإنسانية ، القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق ،"وفي إنشاء جميع البشر من نفس واحدة ، آيات بينّات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته . وفي التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته ، وإرشاد إلى ما يجب من التعارف والتعاون بين البشر ، وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل ، مدعاة إلى التآلف ، لا إلى التعادي والتقاتل ، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس " [٩٤] ؟ !

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ، ولا إلى أنسابكم ، ولا إلى أجسامكم ، ولا إلى أموالكم . ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنَّن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم "[٩٥] .

والمسلمون هم أحق الناس بالحفاظ على الأخوة ، وأجدر الناس بإتباع هدى القرآن . وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن الأصول الأصيلة .. للأخوّة في الإسلام .

٣- وحدة العقيدة .

ووحدة العقيدة .. من أهم الركائز لوحدة المسلمين وتكامل أُخوّتهم .

وعقيدة المسلمين واحدة ، لا تختلف باختلاف جنس من الأجناس ، أو لون من الألوان ، أو مصر من الأمصار ، أو جيل من الأجيال ...

وهذه العقيدة تقوم على الإيمان بالله وبرسول الله صلى الله عليه وسلم. وبكل ما في القرآن .. وأن الإسلام هو الإسلام ، والقرآن هو القرآن . ومن آيات العقيدة في القرآن قوله تعالى : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (٩٦)

قال الإمام ابن كثير : " اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميمة ، وعقيدة مستقيمة " (٩٧) ، والآية - كما ترى - مشتملة على خمس عشرة خصلة ، ترجع إلى ثلاثة أقسام :

فالخمسة الأولى منها تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل صحة الاعتقاد ، وآخرها قوله " والنبيين " وافتتحها بالإيمان بالله واليوم الآخر ، لأنهما إشارة إلى المبدأ والمعاد .

والستة التي بعدها تتعلق بالكمالات النفسية التي هي من قبيل حسن معاشرة العباد، وأولها (وآتى المال) وآخرها (وفي الرقاب)

والأربعة الأخيرة ، تتعلق بالكمالات الإنسانية التي هي من قبيل تهذيب النفس لوقايتها من شر الأضداد . وأولها " وأقام الصلاة " ، وآخرها "وحين البأس " .

ولعمري من عمل بهذه الآية ، فقد استكمل الإيمان ، ونال أقصى مراتب الإيقان(٩٨) ! !

وعقيدة الإسلام واحدة لدي كل المسلمين في شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبهـــا ، تجتمع عليها قلوبهم ، وتحفظها عقولهم ، وتستيقنها نفوسهم ، ووحدة العقيدة جدَّدت بـــين المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم .

وإذا كانت أبوة آدم – عليه السلام – أبوة مادية ، تجمع بين الأمة الإسلامية ، وتوَّحد بينها في الأصل ، فإن العقيدة الإسلامية هي أبوة روحية ، ترجع إليها فروع المؤمنين .

والحق أن المؤمن حينما يستشعر جلال هذا الأصل الروحي ، الـــذي يجمعـــه وإخوانـــه المؤمنين – في مشارق الأرض ومغاربها – ، إلى جانب الأصل المادي الذي يرجعه معهم إلى أبوة واحدة ..

فإنه حينئذ يشعر أنه إنما يحيا بإخوانه ، ويحيا لهم ، ويحسَّ وكأنه غصن من أغصان شجرة عظيمة ، يحيا بحياتها ويموت بموتها[٩٩] !

وإن رابطة العقيدة في الإسلام – وهي رابطة في المبادئ والمثل العليا – من أقوى عوامل الازدهار ، وتلك التعاليم هي أعلى وأقوى من رابطة الـــدم ، والنســـب ، والمســـاكنة في الوطن، والمشاركة في القومية .

وهذا الأساس هو المنطلق الوحيد ، للخروج من قوقعة الأنانيـــات الفرديـــة والقبليـــة والقومية ، إلى صعيد اللقاء الإنساني ، على أساس المبادئ . مبادئ الحق ، والعدل ، والخير .

وفي هذا الإطار التربوي النفسي ذاته ، عالج الإسلام النفس الإنسانية ، إعـــداداً لهـــا ، لتحقيق التعارف والتعاون . فعالج آفاتها وأمراضها الحائلة دون التعاون . كالحقد والحســـد والغل ، التي تثيرها دوافع النفعية للذات الفردية ، أو القبلية ، أو القومية[١٠٠] ؟

٤– وحدة الشريعة :

والأصل الرابع ... في أصول الأخوة الإسلامية . وحدة مصدر التشريع . . .

ومصدر التشريع واحد لدي المسلمين . وهو القرآن الكريم –كتاب الله – الذي أنزله ، ليكون دستور الخالق في إصلاح الخلق ، ينظم الحياة ، ويعالج النفوس ، ويقـــوم اعوجـــاج المجتمع .

قال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ و احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) (١٠١)

وقال تعالى : (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١٠٢)

وقال تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (١٠٣)

وإن الله عز وجل ، ذكر للنور ثلاث فوائد :

الأولى : أنه يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، أي أن من اتبع منهم ما يرضيه تعالى بالإيمان بهذا النور ، يهديه الطريق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة ، من كل ما يرديه ويشقيه .. فيقوم في الدنيا بحقوق الله تعالى ، وحقوق نفسه الروحية والجسدية ، وحقوق الناس ، فيكون متمتعاً بالطيبات ، مجتنباً للخبائث ، نقياً ، مخلصاً ، صالحاً مصلحاً .. ويكون في الآخرة سعيداً منعماً ، جامعاً بين النعيم الحسي الجسدي ، والنعيم الروحي العقلي .

الثانيـــة : الإخراج من ظلمات الجهل والوثنية إلى نور التوحيد الخالص .. حيث يصبح الإنسان حراً كريماً بين الخلق ، عبداً خاضعاً بين يدي الخالق وحده .

الثالثة : الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين، في أقرب وقت ، لأنه طريق لا عوج فيه ، ولا انحراف ، ومن ثم فلا يبطئ سالكه ، أو يضل

في سيْـــره .. وهو أن يكون الاعتصام بالقرآن الكريم ، على الوجه الصحيح الذي أنزله الله تعالى لأجله .. بأن تكون عقائده ، وآدابه ، وأحكامه ، مؤثّرة في تزكية النفوس ، وإصلاح القلوب ، وإحسان الأعمال.. وثمرة ذلك سعادة الدنيا والآخرة ، بحسب سنن الله في خلـــق الإنسان .[١٠٤]

والقرآن الكريم .. هو وحده القادر على تنظيم علاقة الإنسان بنفسه ، وبعالمه الداخلي..

والقرآن الكريم هو وحده القادر على تحديد علاقة الإنسان بالوجود كله ...

والقرآن الكريم .. هو وحده القادر على أن يرسم للمجتمـــع الإســـلامي ، الخطـــوط السليمة ، ويضع له الحوافظ التي تحفظ الإنسانية من التردّي والهلاك .

والقرآن الكريم .. هو وحده الذي توجد فيه الحلول المنطقية المقبولـــة لكـــل مـــا وراء الحواس .. والقرآن الكريم .. غني بكل جوانب الحياة : الروحية ، والعقلية ، والجسمية .. والقرآن الكريم هو وحده القادر على إذكاء روح الأخوة الإسلامية ، وتدعيم المحبة بـــين المسلمين .

وما دام القرآن الكريم يعمل على وحدة الصف الإسلامي ، فـــلا غـــرو أن يـــأمر الله المسلمين .. إن دب بينهم نزاع بأن يرجعوا إلى كتاب الله .. قـــال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّـــذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّـــهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) [١٠٥]

فالرجوع عند التنازع في أي أمر إلى كتاب الله ، وسنة رسول الله .. شرط في الإيمان .. وذلك كله خيُر محض لا شر فيه أبداً .

والمسلمون إخوة بنص القرآن الكريم .. قال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [١٠٦]

وهي أخوة في الدين والحرمة لا في النسب .. ولهذا قيل أخوة الدين أثبت مـــن أُخـــوّة النسب ، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، وأخـــوة الـــدين لا تنقطـــع بمخالفـــة النسب[١٠٧] .

وأخوة الدين أحق ، وأجدر أن يُهْتَم لها ، ويصلح بين المتخاصمين من المؤمنين ، لأنها أخوة بنص كتاب الله تعالى ، والله سبحانه وتعالى هو الذي عقد هذه الأخوة من فوق سبع سماوات ، وما عقده الله – تبارك وتعالى – لا تحله يد بشر ، مهما قويت وسطت ، وظلمت . ومن عجيب أمر هذه الآية الكريمة ، أنها جاءت وكأنها قررت أمراً واقعاً مفروغاً منه ، لا يُرد ولا يُصد .. فقالت : " إنما المؤمنون إخوة " .

هكذا حكم الله ، وهكذا أخبر عن هذا العقد ، الذي ربطه في السماء بين المؤمنين ، مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت لغاتهم ، وتباعدت أقطارهم ، وتناءت ديارهم .. فهم إخْوةَ ، ، تجمعهم عقيدة خالدة ، ورسالة واحدة .....

وهكذا جاءت الجملة خبرية ، لتقرر واقعاً عظيماً ، وتخبر عنه فقالت : " إنما المؤمنون إخوة ". ولم تأت الجملة إنشائية .. إذ لو جاءت الآية إنشائية .. لكانت الأخوة غير موجودة .

ولكنه عز وجل ربط قلوب المؤمنين برباط واحد ، وعقد هذا الرباط ، ثم أخبر عن هذه الحقيقة الثابتة الواقعة . وقضى فيها بحكمه فقال : " إنما المؤمنون إخوة " .. ثم ثنّى بتقرير هذه الحقيقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : " المسلم أخو المسلم أحب أم كره" .

كما قال عليه الصلاة والسلام : " المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه و لا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه في البنيان ، فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره[١٠٨]" ... وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال :

" المؤمن مرآة المؤمن ، المؤمن أخو المؤمن ، يكف عنه ضيقه ، ويحوطه من ورائه "[١٠٩]

وهكذا فهم الصحابة الكرام هذه الأخوة ، وعاشوا فيها ، ولها ، وأصبحوا بفضل الله تعالى إخواناً ، دعوتهم واحدة ، وأمرهم واحد ، تقاسموا الحب فيما بينهم ، وآثروا إخوانهم

على أنفسهم فقاسموهم الأموال ، ووصلوا إلى درجة من الإيثـــار ، أن يقـــول الصـــاحب لصاحبه .. هذا مالي جعلته بيني وبينك . وهاتان زوجتاي ، اختر أيتهما تشاء ، لتتزوجهـــا أنت ، بعد أن أُطلّقها وتعتدّ [١١٠].

والأخوة في الإسلام .. أسلوب تربوي بناء .. يسمو بالمجتمع .. ويصل بـــه إلى مراقـــي الفلاح ... وآثار الأخوّة .. تبدو واضحة ، في تعاون المسلمين وحبهم للقرآن ، ولرسالـــة الإسلام . وسوف يبقى المسلمون في أشد الحاجة إلي الأخوّة ، لأنها سياج يقي المجتمـــع من التعثُّر ، والتبعثر ، والأمة الإسلامية تحتاج إلى الإخاء الكامل الذي لا يعرف الحزبية .. و لا العصبية .. ولا القومية .. ولا الإقليمية .. ولا الـــيمين .. ولا اليســـار .. ولا المـــذاهب الوضعية...

وقد أتم الله للمسلمين .. وحدة الأصل .. ووحدة العقيدة ، ووحدة المصدر . ووحـــدة الشعور . ووحدة الصف .

وكانت آثار ذلك واضحة في ...

الحب في الله .. والتعاون .. والتكامل .. والمساواة .. والعدل ... والشورى . . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـــر .

ومن هذا المنطلق .. كانت الأمة الإسلامية تملك رصيداً ضـــخماً .. يمكـــن اســـتثماره لتحقيق الإخاء الكامـــل ... إذا ما أطاعوا الله ورسوله . .

السمع والطاعة لله ورسوله من المعنويات المهمة في مجتمـــع الإخـــاء :

بهذه الحكمة ، وبهذه الحذاقة أرسى النبي صلى الله عليه وسلم قواعد مجتمع جديد مؤمن بالله يسمع ويطيع أوامر الله ورسوله ، لأن سلوك الإيمان لدي أصحابه جعلهم ينقادون لحكم الله ورسوله مصداقاً لقوله تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [١١١] ، وقوله تعالى : (فَلا وَرَبِّـــكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجـــاً مِمَّـــا قَضَـــيْتَ

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) [١١٢] ، وقوله عز من قائل : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً)[١١٣] .

وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحضُّهم على حسن الجوار فيقول : " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه " [١١٤] كما يحضُّهم على الحب والإخاء ، وعدم التحاسد والتباغض ، ويدعوهم إلى العطف والرحمة والتكافل .

يقول – صلى الله عليه وسلم – : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده "[١١٥] ويقول : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " [١١٦] ويقول : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " [١١٧] ويقول : " لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام " [١١٨] ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " [١١٩] ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر "[١٢٠] ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُرْيٍ كساه الله من خضراء الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم " [١٢١].

سمع المسلمون أوامر نبيهم فأطاعوه حباً وامتثالاً ، بل فضَّلوه على آبائهم وأنفسهم ، وخير دليل على ذلك ما فعله " عبد الله بن عبد الله بن أبي " مع أبيه المنافق لما قال في غزوة بني المصطلق : " إن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل " – ويعني به النبي صلى الله عليه وسلم – فقال له ابنه : " والله لا تنقلب حتى تقرّ أنك الذليل ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – العزيز " . ففعل [١٢٢].

إن الإسلام أرسى دعائم الدولة الإسلامية وربط بها سائر القبائل والجماعات ، فانخرط الجميع في سلك الإسلام ، وبرزت فكرة الأمة الواحدة حين ذابت جميع العصبيات القبلية ، امتثالاً لأمر الله : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) [١٢٣] .

بمثل هذا استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يبني في المدينة مجتمعاً جديـــداً ، أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ ، قام على الأخوة والمحبة والمودة ، والسمـــع والطاعـــة .

[٣- معاهدة اليهود والأعراب حول المدينة]

أ – المعاهدة مع اليهود (في يثرب) :

بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ووثق من رسوخ قواعد المجتمـــع المدني الإسلامي الجديد ، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المســـلمين – (إقامة المسجد ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار) – رأى أن يقوم بتنظيم علاقاتـــه بغـــير المسلمين ، وكان همه في ذلك هو توفير الأمن والسلام ، والسعادة والخير للبشرية جمعـــاء ، مع تنظيم المنطقة التي يسكنها المسلمون في وفاق واحد ، فسَنّ في ذلك قـــوانين الســـماح والتجاوز ، التي لم تُعْهدَ في عالم ملئ بالتعصب والتغالي ، خاصة وأن الإســـلام يطلـــب إلى المسلمين العدل مع غيرهم ، بل يزيد على ذلك الدعوة إلى برِّهم والإحسان إليهم ، قـــال تعالى : (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِـــنْ دِيَـــارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِـــي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [١٢٤] ، كما أنه يطلب إلى النبي صلى الله عليه وسلم معاملة أهـــل الكتـــاب بالحسنى ، ودعوهم إلى الله باللّين ، قال تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَـــوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [١٢٥] . وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المســـلمين هم اليهود – كما أسلفنا – وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين ، لكـــن لم يكونـــوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد ، فعقد معهم النبي صلى الله عليه وسلم معاهدة ، ترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال ، والحِلّ والترحال ، ولم يتجه إلى سياســـة الإبعـــاد أو المصادرة والخصام ، بل وفر لهم الأمن والسلام والمُقَام ، هانئين هادئيـــن في ظل الإسلام ، إذا لم ينقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين [١٢٦].

وجاءت هذه المعاهدة ضمن الوثيقة التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لتنظيم العلاقة بين المسلمين أنفسهم – مهاجرين وأنصار –[١٢٧] بينما يرى الدكتور أكرم ضياء العمري[١٢٨] : أنهما وثيقتان في الأصل ، لتنظيم العلاقة بين المسلمين وبعضهم ، وبينهم وبين غيرهم ، خلط بينهما بعض المؤرخين ، وأن الوثيقة الخاصة بالمسلمين كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد غزوة بدر ، بينما وثيقة اليهود كانت بعد وصوله المدينة بخمسة أشهر فقط [١٢٩].

وأياً ما كان الأمر ، فإن المعاهدة مع اليهود اشتملت على عدة بنود أهمها[١٣٠] :

١ – " إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته .

٢– إن ليهود بني النجار ، ويهود بني الحارث ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني جشم ، ويهود بني الأوس ، ويهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣– إن " جفنة " – بطن من ثعلبة – كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود (خاصتهم وأهل بيتهم) كأنفسهم ، وإن البر دون الإثم .

٤– وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك ، فبنفسه وأهل بيته فتك ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبرّ هذا .

٥– وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

٦– وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم .

٧– وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٨- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٩- وإن الجار كالنفس ، غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

١٠- وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدَث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله – عز وجل – و إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقي ما في هذه الصحيفة وأبَره

١١ – وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

١٢ – وإن بينهم النصر على من دهم يثرب (المدينة) ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلِهم .

١٣ – وإذا دعوا (أي المؤمنين) إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم (أي اليهود) إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم هذا على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

١٤ – وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحصن (الخالص) من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه .

١٥ – وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنَّه من خرج آمن ومن قعد بالمدينة آمن إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وبإبرام هذه المعاهدة مع اليهود صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية ، عاصمتها المدينة وقائدها الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و الكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين .

إن كلمة " الدستور " هي أقرب إطلاق مناسب على هذه الوثيقة، لأنها بالفعل وضعت دستور الدولة وقانونها العام ، سواء فيما يتعلق بالمسلمين أنفسهم أو فيما بينهم وبين جيرانهم اليهود ، حيث أكدت أن الإسلام دين ودولة ، ونظام يشمل كل مناحي الحيـــاة ، يجمـــع المسلمين ويصهرهم في بوتقة واحدة تشملهم تشريعات واحدة قائمة على العدل و الأخـــوة والمساواة بين الجميع دون نظر إلى الجنس أو اللون ، كما تدل هذه الوثيقـــة علـــى مـــدى العدالة ، و الحرية الدينية ، و الحل والترحال ، و الأمن والأمان ، وتحكيم الله ورسوله فيما يشكل بين اليهود والمسلمين ، كل ذلك كان من المهام التي اتسمت بها معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لليهود ، لكنهم قابلوها بالمكر والغدر و الخديعة – التي جبلوا عليها – ممـــا جعل المسلمين في حل من الالتزام بما جاء فيها تجاه اليهود .

ب – مهادنـــة الأعراب حول المدينـــة :

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام في المدينة وما حولها – في المستقبل – عاهد النبي صلى الله عليه وسلم قبائل أخرى بمثل هذه المعاهدة ، خاصة القبائل المجاورة للمدينـــة ، والـــتي تقطن على طريق قريش التجاري من مكة إلى الشام ، فعاهد قبيلـــة جهينـــة وبطونهـــا – ومساكنها بين المدينة ورابغ – على بعد ثلاثة مراحل (أي ينبع وما حولها [١٣١]) ، وكان هـــدف النبي صلى الله عليه وسلم من هذه المعاهدات الحد من غطرسة قريش واستكبارها، وفضلاً عن ذلك فإنه بث السرايا للاستكشاف و التعرف على الطرق حول المدينة – قبـــل تشريع الجهاد – للاطمئنان على أمنها ، وليظهر لليهود و مشـــركي العـــرب بالمدينـــة ، والأعراب من حولها ، أن المسلمين أصبحوا قوة ، بالإضافة إلى إنذار قريش بأن ينتهوا عـــن طيشهم وغيِّهم لأن الحال قد تغيـــّر ، وأن المسلمين أصبحـــوا أقويـــاء [١٣٢] .

وفي أول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم صفـــر سنة ٢ هـــ بعد تشريع الجهاد ، وهي غزوة الأبواء (بين المدينة و الجحفة) والتي خرج فيها يعترض عيراً لقـــريش لكنـــه لم يلحق بها ، وكانت الأبواء ، وودان منازل بني ضمرة (من كنانة) فعقد معاهدة حلف مع مخشي بن عمرو الضمري – سيد بني ضمرة في زمانه – نُصَّ فيها على : " هذا كتاب مـــن

محمد رسول الله لبني ضمرة ، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحـــاربوا دين الله ما بلّ بحر صوفه ، وإن النبي صلى الله عليـــه وســـلم إذا دعاهم لنصره أجابوه .[١٣٣]

وفي غزوة العشيرة – من بطن ينبع – جمادى الأولى سنـــة ٢ هـــ خرج النبي صلى الله عليه وسلم لأخذ عيـــر لقريش ، لكن العير سبقته قبل وصوله بأيام ، وفي هذه الغـــزوة وادع النبي صلى الله عليه وسلم بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة[١٣٤].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حالف قبيلة خزاعة بعد عقد الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هـــ[١٣٥] . كما وادع صلى الله عليه وسلم يهود تيماء[١٣٦] في صفـــر سنـــة ٧ هـــ ، وكتب لهم بذلك كتاباً وهذا نصه : " هذا كتاب من محمـــد رســـول الله إلى بـــني عاديا: إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، و لا عداء ولا جلاء ، الليل مدّ والنهار شدّ [١٣٧] ".

ولكن بعض هذه القبائل خانت العهد وتحالفت مع قريش ، فكان لابد من رد عدوانهم ، ولا يتم ذلك إلا من خلال الجهـــاد والحـــرب .

[٤ – الجهـــاد في سبيـــل الله لحمايـــة الدعوة والدولـــة]

لم تكتف قريش بما فعلته مع المسلمين في مكة من تنكيل واضطهاد ، لكن عدوان كفـــار مكة استمر ، وزاد من غيظهم أن فاتهم المسلمون ، ووجدوا مأمناً ومقراً لهم بالمدينة ، ولذا أرسلت قريش إلى أهل المدينة يتهددونهم بالحرب إن لم يخرجوا محمداً والمسلمين من ديارهم، وحاول عبد الله بن أُبَي تنفيذ مطالب مشركي مكة ولكن حكمة النبي – صـــلى الله عليـــه وسلم – أطفأت نار حقده ، ومن كان على شاكلته من المنافقين واليهـــود ، ولم تفلـــح – أيضاً – عزيمة صدّ المسلمين من – أهل يثرب – عن المسجد الحـــرام ، لأن أهـــل يثـــرب توعدوا قريش بقطع طريقهم إلى الشام المار على المدينة ، وهنا لم يبق أمام كفـــار مكـــة إلا تهديد المهاجرين ، حينما أرسلوا إليهم يقولون : " لا يغرنكم أنكم أفلتمونـــا إلى يثـــرب ، وسنأتيكم فنستأصلكم ، ونبيد خضراءكم في عقر داركم [١٣٨]" .

لكل هذا ما كان يبيت النبي – صلى الله عليه وسلم – إلا ساهراً ، أو في حرس من الصحابة – حتى نزل قوله تعالى : ((وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)) [١٣٩] ، فصرف النبي حراسه لعصمة الله له – بل إن الخطر كان يتهدد المسلمين كلهم ، ولذا كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا فيه [١٤٠] في ظل هذه الظروف الخطيرة التي باتت تهدِّد كيان المسلمين بالمدينة ، أذن الله للمسلمين بالقتال لرد العدوان ، – ولم يفرضه عليهم – . قال تعالى : ((أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ....)) إلى قوله تعالى ((الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)) [١٤١] – وسنبيّن ذلك عندما نتحدث عن تشريع الجهاد [١٤٢] –. وبعد الإذن بالقتال كان من الحكمة أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش المؤدية من مكة إلى الشام ، ولتنفيذ ذلك عقد النبي محالفات مع القبائل التي تقطن حول هذا الطريق مثل جهينة، وبني ضمرة وبني مدلج – كما ذكرنا سابقاً – كما قام بإرسال البعوث والسرايا إلى هذا الطريق ، لإخافة قريش ، حتى كان شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة – أي بعد سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة في رجب سنة ٢ هـ ففرض الله القتال على المسلمين لرد عدوان الكفار ، وأنزل في ذلك آيات بينات : ((وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ.....)) إلى قوله تعالى : ((وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)) [١٤٣] وبعد هذه الأوامر والإشارات القرآنية زاد نشاط المسلمين ، واشتدت نزعائهم إلى الجهاد في سبيل الله ، ولقاء العدو في عراك دامي . يفصل بين الحق و الباطل ، لتأمين الدعوة وانتشارها ، ورد الحقوق المسلوبة ، ومكافحة العدوان [١٤٤].

وأضحى الجهاد قسمة من قسمات بنيان الدين والدولة ، يستحيل اكتمال هذا البنيان بدونه ، حسب طاقة المسلمين وجهدهم ، ولأمر ما كان الجذر اللغوي لكل من الاجتهاد والجهاد جذرا واحدا ، فالجهد هو أصلهما ، وبذل الوسع واستفراغ الجهد في

ميادين الفكر هـــو " الاجتهاد " ، وبذل الوسع واستفراغ الجهد لوضع هذا الاجتـــهاد في الممارسة والتطبيق في مختلف الميادين هو " الجهاد " الذي يحقق المقاصد والغايات الحقيقية من الاجتهاد ! إنهما وجهان لعملة واحدة هي تطبيق منهج الإسلام (١٤٥) .

إن العقيدة الإيمانية علي النحو الذي صورناه ، سمعاً وطاعة – فيما مضي – تستدعي ممن يعتنقها أن يدافع عنها ويحميها من كيد المتربصين بها ، والإسلام كنظام عالمي جـــاء ليغيِّـــر الحياة ويكتسح ركامها بالحق، فلابد أن يجد من الأعداء في كل جيل من يتصـــدى لـــه – بالباطل –ويعلن الحرب عليه ، ولهذا شرع الجهاد ليحمي هذه العقيدة ونظامها الحياتي مـــن كيد المتربصين ، وهجمات الجاهلين ، ليأخذ هذا النظام مجراه العتيد في هداية البشر من غير تعويق ، ولا صد علي مر الزمن ، : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفســـدت الأرض ولكن الله ذو فضل علي العالمين " (١٤٦).

فالجهاد درع تحتمي به العقيدة ونظامها الإسلامي ، في مواجهة أعدائها والصادّين عنها، وليس وسيلة إرغام ولا سبيل قهر (١٤٧) ، إنما هو عقيدة استعلاء تبعـــث في روح المـــؤمن الإحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة من غير اغترار ، لأن الإسلام دين المسالمة مـــع المسالمين ، والردع للمعانديـــن ، وهو نور يهدي المؤمنين ونار تحرق الطغاة الآثمين ، يـــدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا جد الجد كان الصخرة التي يتحطم عليها مكر كل جبـــار عنيد ، إن الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا علي حذر في وقت السلم حتى لا يؤخذوا على غرّة ، كما يدعو المسلمين إلي الجهاد والاستشهاد – زمن الحرب – من أجل عـــزة الإسلام والمسلمين ، ولا يعدل الجهاد في سبيل الله مال ولا ولد ، ولا والد ولا عشيرة ولا أهل ، لأن الدفاع عن العقيدة ، وعن ديار الإسلام من أسمي أهداف هذا الدين (١٤٨).

ومن هنا صار الجهاد – بوجه عام – مبدأً من مبادئ الإسلام التي أخذت مكانتها بـــين عقائده وفروعه ، واستقرت دعوة القرآن والسنة إلي الجهاد – علـــي عمومـــه– متعلقـــة بذمّة المسلمين جماعة وأفرادا (١٤٩) ، كقيمة عليا للحفاظ على بنيـــان المجتمـــع الجديـــد وإعلائـــه.

ولهذا كان مقام الجهاد عاليا في رسالة الإسلام ، بل إنه سنام أمر الإسلام، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأس الأمر : الإسلام ، وعموده : الصلاة ، وذروة سنامه : الجهاد "[١٥٠].

وهو سياحة الأمة الإسلامية في كل ميادين الحياة ، قال صلى الله عليه وسلم :" إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله "[١٥١]، وإذا كانت بعض أمم الرسالات قد اتخذت من الرهبانية النشاط العملي الذي جسدت به دينها ، فانحصر هذا الدين في الأديرة والمغارات ، فلقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النشاط العملي لأمة الإسلام ليس الرهبنة التي تعزل الدين عن الحياة ، وإنما هذا النشاط هو الجهاد الإسلامي في مختلف ميادين الحياة[١٥٢]، حيث قال صلى الله عليه وسلم : " رهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله"[١٥٣].

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنه تخلّف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل "[١٥٤].

وبادئ ذي بدء يجب علينا أن نعرف بماهية الجهاد حتى لا يظن البعض أنه يرادف القتال، ولكي لا يتشدق أعداء المسلمين اليوم بأن هذا الدين ما جاء إلا لفرض القتل و العنف والإرهاب ، فالجهاد أشمل وأعم من القتال[١٥٥] لان الجهاد يكون تارة جهاد النفس ، وتارة جهاد الخارجين علي قواعد الإسلام ، وتارة أخرى جهاد الأعداء (الكفار) والأخير هو الذي يرادف القتال ، يقول صاحب البصائر [١٥٦] : الجهاد : الطاقة والمشقة ، والجهْد (بفتح الجيم) : المشقة (وبضمها) : الوسع ، وقيل الجهاد : ما يجهد الإنسان . قال تعالي : " واقسموا بالله جهد أيمانهم "[١٥٧] أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على

أبلغ ما في وسعهم ، والاجتهاد : أخذ النفس ببذل الطاقة ، وتحمل المشقة ، يقال : جهدت رأيي واجتهدت : أتعبته بالفكر ، والجهاد والمجاهدة : استفراغ الوسع في مجاهدة العدو .

والخلاصة : أن الجهاد أقسام ثلاثة :

١- الأول : جهاد النفس : وهو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله "(١٥٨) والمقصود بجهاد النفس هو ما يشمل دفعهـا عـن غوايـة الشيطان ، وغرور الدنيا ، واتباع الهوي ، وإلزامها بالوقوف عند حـدود الله (١٥٩) ، لان النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رجع من الغزو والجهاد يقول : " قد جئتم من الجهـاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر ، ألا وهو جهاد النفس " (١٦٠)

ولله دَرّ الشاعر العربي حين يقول :

يا من يجاهد غازيا أعداء دين الله يرجو أن يُعان ويُنصـــــرا
هل غشيت النفس غزوًا إنّهـــا أعدي عدوك كي تفوز وتظفـــرا
مهما عنّيت جهادها وعنادهـــا فلقد تعاطيت الجهاد الأكبـــرا

وقد يطلق الجهاد ويراد به معني يشمل القتال وغيره ، كالجهاد بالمال في قوله تعـالي : " الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون "(١٦١) . كما يطلق الجهاد ويراد منه جهاد النفس أيضا ، كما في قوله تعالي : " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين " (١٦٢) . فالآية ، والسورة الـتي حوهّا مكية ، ولم يفرض قتال في مكة ، والمعنيُّ بالجهاد هنا هو المعنى العام ، المأخوذ من المعني اللغوي ، الذي هو : بذل الجهد والطاقة لمجاهدة النفس والشيطان والهوى والدنيا (١٦٣) التي امتحن الله بها عباده ، والمجاهد هو الذي يخلّص نفسه من هذه الابتلاءات الأربع كما قـال القائل :

إني ابتليت بأربع ما سلطوا إلا لشدة شقوتي و عنائـــــي

إبليس والدنيا ونفس والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائـــي

ومثل قوله تعالي : " وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي " (١٦٤) .

وقوله : " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْـــحَابِ السَّعِيرِ) (١٦٥) وقوله أيضا : "لا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ " (١٦٦).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لمـــا جئـــت به"(١٦٧) .

٢- النوع الثاني من الجهاد : هو مجاهدة الفُسَّاق الخارجين عن جادَّة الـــدين ، وذلـــك بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، بل تغيير منكرهم لمن يقدر عليه ، لأن ذلك واجـــب شرعي ، كما قال الله علي لسان لقمان لابنه وهو يعظه : " يَا بُنَيَّ أَقِـــمِ الصَّـــلاةَ وَأْمُـــرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (١٦٨).

وقوله تعالي – أيضا – : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " (١٦٩) ، وقوله : " وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْـــرِ وَيَـــأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (١٧٠)، وقول النبي صلى الله عليـــه وسلم : " من رأي منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " (١٧١)، فالجهاد لمنع المنكر باليد إن كان المحتسب سلطانا أو حاكما أو عالما له قوة ومنعة ، وباللسان إن كان عالما بالكتاب والسنة ويبرهن علي كلامه بالأدلـــة ، وبالقلب إن كان من العـــوام ، أو يخشي الهلكة إن أَمَر ونهي ، وهو ما يســـمي الجهـــاد بالكلمـــة (منطوقه أو مكتوبة) ، ومثله جهاد المنافقين ، كقوله تعالي : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٧٢)" ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر " (١٧٣) .

كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم عاقبة من تركوا مجاهدة الفساق ، بعدم نهيهم عـــن المنكرات فقال : " إن أول ما دخل النقص علي بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجـــل

فيقول : يا هذا اتق الله ودعْ ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم لعناً شديدًا فقال تعالي : " لعن الذين كفروا من بني إسرائيل علي لسان داود وعيسي بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون "[١٧٤]. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ، ولتأخذنّ علي يد الظالم، ولتأطرنّه علي الحق أَطْرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم علي بعض ثم يلعنكم كما لعنهم "[١٧٥] ، كما دلّل فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه علي وجوب مجاهدة هؤلاء الخارجين عن الطريق المستقيم ، حكاما ومحكومين بكل سبيل[١٧٦] . وقد يطلق الجهاد ويراد به معني يشمل القتال وغيره ، وهو القسم الثالث من الجهاد وهو :

٣- جهاد الكفار وقتالهم : إن الجهاد في الإسلام درع تحتمي به العقيدة وأصحابها ، كما تحمي به الدولة أرضها ومواطنيها من أي عدوان خارجي في مواجهة أعداء الدين الصادّين عنه[١٧٧] ، وليس وسيلة إرغام ، ولا سبيل قهر لغير المسلمين كما يروج البعض : أنّ الجهاد كان سبيلا لنشر الإسلام بالسيف ! . لا : إن الإسلام جعل أساس معاملته للآخرين قائما علي الرفق واللين والتسامح ، فهو لم يرغم الآخرين علي اعتناق هذا الدين وإنما أقرّ حرية التدُّين : " لكم دينكم ولي دين " [١٧٨] ، وتأكد هذا في قوله تعالي : " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " [١٧٩]، وقوله : " لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرُّشد من الغيِّ " [١٨٠]

وفي العهد المكي خاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " [١٨١].

بل إن الإسلام يؤكد أنه لا يصلح إسلام الناس في الظاهر فقط ، وأنه لابد أن يقوم علي إخلاص صادق ، وقناعة تامة دون إكراه أو ضغط ، ولذا حرّم النفاق ، وجعل المنافقين أشد عذابا من الكفار ، فقال تعالي : " إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار " [١٨٢] .

ولهذا كانت وسائل انتشار الإسلام هي : الكلمة الطيبة والأسوة الحسنة والإقناع المجرّد، وفي مواجهة الإسلام لأعدائه كان القتال هو المرحلة الأخيرة التي كان المسلمون يلجـــأون إليها مكرهين ، بعد أن تضيق بهم السبل إلي السلم ، ولا يكون أمامهم سواها للدفاع عـــن أنفسهم ودينهم [١٨٣] : " كتب عليكم القتال وهو كره لكم " [١٨٤].

إن الجهاد في الإسلام ورد في القرآن الكريم بلفظه ثلاثين مرة ، وورد كثيراً بلفظ القتال المرادف له ، وكلاهما يَرِدُ أحيانا مقرونا بسبيل الله [١٨٥]، ومعني ذلك أن يُقْصَد به وجه الله، والدفاع عن المثل والكيان والكرامة ، ورفع الظلم ورد العدوان ، فالقتال في الإسلام شرع من أجل غرضين أساسين :

الغرض الأول : الدفاع عن النفس من الاعتداء عليها ، وكل ما يتعلـــق بمتطلبـــات النفس، من الدفاع عن العرض ، والمال ، والأرض التي يعيش عليهـــا المسلمـــون .

والغرض الثاني : الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتعاليم الإلهية ، حماية لحاملي مشعلها والمستضعفين بسببها ، وإفساح الطرق أمام الدعوة ورسالة الحق للذيوع والانتشـــار ، ولم يشرع القتال في الإسلام لتثبيت ملك ، أو توسيع سلطان ، أو الغلبة والقهر ، أو اســـتعباد الشعوب واستزاف خيراتها ، إنما شُرِع لرد العدوان ، إذ لو تُرِكَ المشركون يعتدون علـــي المسلمين ، ويقاومون الدعوة ، ويصدون الناس عن الدخول في دين الله ، ولم يُشْرَع القتال لطغي الباطل علي الحق ، وطُمست معالم الدعوة ، وتضرّرت البلاد والعباد ، وبقي العالم من أقصاه إلي أقصـــــاه يئن ويرزح تحت وطأة الجهل والظلم والاستعباد [١٨٦]، والله سبحانه لا يرضي بظلم العباد ، بل يتوعد من يرضي منهم بذلك فيقول تعالي : " إن الـــذين توفـــاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا " [١٨٧].

أجل .. لقد شرع الله القتال للمسلمين في السنة الثانية للهجرة ، أي بعد أربع عشـــرة سنة من الدعوة ، تعرضوا فيها للظلم والعذاب ، فأذن الله لهم به للدفاع عن الحق ، وحماية

للدعوة فقط ولم يفرض القتال عليهم حين نزل قول الله تعالي : " أذن للذين يقاتلون بـــأنهم ظلموا وإن الله علي نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنـــا الله "(١٨٨) .

وهذه الآية هي أول ما أنزل الله في أمر القتال (١٨٩)، ونجد النبي – صلى الله عليه وسلم – ينبه إلي أن قتاله إنما هو للدفاع ، وأن القتال لمن يقاتلهم دون من لم يقاتلهم ، ليبيـــّن أن هذا هو علة الأمر بالقتال ، كما ينبه إلي ترك العدوان ومجاوزة الحد في ردَّ هذا العـــدوان ، اللهم إلا درء فتنة تحويل المسلم عن دينه ، ولم يطلب مقاتله الكفار حتى يسلموا ، إنما القتال حتى يكون الدين لله ، أي الخضوع كله لله "(١٩٠) ، وهذا يحصل إذا عَلَت كلمة الإسلام ، وكان حكم الله ورسوله غالبا – كما يقول الشيخ محمد الغزالي – (١٩١). وبعد سرية عبـــد الله بن جحش إلى نخلـــة (رجب سنة ٢هـــ) فرض الله القتال لرد عدوان كفار مكة على المسلميـــن .

ولقد بيَّن الله ذلك كله بقوله تعالي : " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُـــوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَـــاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَـــاتِلُوهُمْ حَتَّـــى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ "(١٩٢).

ولم يكن الرسول يتعرَّض في قتاله إلا لكفار قريش دون سائر العرب ، فلما اتحد مشركو العرب في عدائهم للإسلام ، وجمعهم الحقد علي الرسول والمسلمين ، والـــبغض لـــدين الله ومحاولتهم القضاء عليه ، أمر الله بقتال المشركين كافة ، بقوله تعالي : " قَاتِلُوا الْمُشْـــرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً " (١٩٣).

ولما نقض يهود المدينة العهد الذي أخذه الرسول – صلى الله عليه وسلم – عليهم وانضموا إلي مشركي قريش لقتال المسلمين – في غزوة الأحزاب سنة ٥ هـ – ، نزل قول الله تعالي : " وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ" (١٩٤).

وهكذا يأخذ الجهاد في الإسلام دور الدفاع عن الحق والنَّفس ، وإقرار العقيدة ، ونصرة المستضعفين(١٩٥) ، قال تعالي : " وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا " (١٩٦).

إذن الإسلام لا يحتكر القوة ، بل يسخِّرها لخدمة الحق ، وحفظ الحياة ، والدفاع عن المستضعفين في الأرض ، ومن ثم فإن ما يردّده أعداء الإسلام – قديما وحديثا – من أن الإسلام انتشر بحد السيف هو دعوي باطلة ، فالحقيقة الواضحة هي أن الإسلام انتصر علي السيف، والثابت أن حروب المسلمين علي عهد النبي صلى الله عليه وسلم فُرِضت عليهم مكرهين لرد المظالم ، ومنع الفتنة ، وقمع الطغاة ، وكسر الجبابرة ، وحماية الحق .

وقد يبدو من ظاهر هذه المعارك أن المسلمين هم الذين بادروا فيها بالهجوم ، لكن هجوم المسلمين كان علي سبيل المبادرة بالدفاع ، بعد تأكدهم من نكس الأعداء لعهودهم ، وإصرارهم علي قتال المسلمين ، وهو ما يسمي في – لغة العصر – الدفاع الوقائي ، ولو أن الكفار تركوا المسلمين في دعة واطمئنان ، ولم يحولوا بينهم وبين دعوتهم الحق ، ما تعرض المسلمون لأحد بحرب ، لان المسلمين كانوا يحبون السلام ويكرهون القتال ، علي الرغم من ضرورته لحماية الحق ، والقضاء علي الباطل(١٩٧) ، وهو ما ذكره الله تعالي بقوله : " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ "(١٩٨).
وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : " يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ،

واسألـــوا الله العافية ، فإذا لقيتمـــوهم فاصـــبروا ، واعلمـــوا أن الجنـــة تحـــت ظـــلال السيوف"[١٩٩].

ولقد أمر الله بعدم التعرض لمن يسالمون المسلمين فقال تعالي : " فَإِنِ اعْتَزَلُـوكُمْ فَلَـمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً "[٢٠٠] ، وقال أيضا : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّه فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّه مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّـهُ عَلَـيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً "[٢٠١].

بل أمر الله ببـــر المسالمين ومسالمتهم والعدل معهم ، فقال تعالي : " لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَـنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "[٢٠٢].

إن السلام في الإسلام هو الأصل الأصيل ، بل إن اشتقاق كلمة الإسلام من السلام فيه ما يوحي بمنهج الإسلام في الحياة ، وهو عموم السلم والأمان والطمأنينة للناس[٢٠٣]:" يـــا أيهـــا الذيـــن آمنوا ادخلـــوا في السّلم كافة "[٢٠٤]، ولكنه السلام العزيز القادر :

" فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ "[٢٠٥].

إن شريعة الإسلام تجيز لأتباعها المصالحة والموادعة ، وتحضّهم علي إنهاء الحرب، وقبول السلام متى طلب أعداؤهم ذلك ، وما دام هذا السلم لا ضرر من ورائه للمـــؤمنين[٢٠٦]. قال تعالي : " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّه إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِـــيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ "[٢٠٧] ، لكـــن إذا فرض القتال علي المسلمين لردع العدوان والدفاع عن العقيدة والدين ، كـــان علـــيهم أن يعدوا أنفسهم وما استطاعوا من قوة لدفع الخطر ، وإرهاب أعداء الله الظاهرين والمستورين، قال تعالي : " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِـــهِ عَـــدُوَّ اللَّـــهِ

وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ" (٢٠٨).

فالآية تدعو المسلمين إلي الاستعداد بما في الطوق ، للقيام بفريضة الجهاد في سـبيل الله ، والإسلام يأمر بإعداد القوة علي اختلاف صنوفها وأسبابها ، وجاءت كلمة " قوة " منكرة للتنويع ، لتشمل كل أنواع القوة ، وأولها قوة العقيدة ، لأنها أُسّ الفضائل ، وقوام الضمائر وسداد العزائم في الشدائد ، وبلسم الصبر عند المصائب ، وعـزاء القلـوب إذا نزلـت بالإنسان نازلة ، فلا يوجد ما يصون الاستعداد العسكري إلا عقيدة الإيمان بالهدف ، لأنهـا هي التي تربط القلوب بالله ، وتصل قوة المجاهدين بالقوة الكبرى التي لا تغلب ، وقد علمتنا المعارك التي خاضها المسلمون وانتصروا فيها – سواء في غزوة بدر أو القادسية أو اليرموك ، أو حطين ، أو عين جالوت ، وحتى العاشر من رمضانَ – أن الوسائل المادية ليست وحدها هي القوة التي تفصل في المعارك بل قوة الإيمان هي الأساس ، ولو انتظر المسلمون في غزوة بدر حتى تتكافأ قوتهم وقوة خصومهم ما قامت للمسلمين قائمة ، إنما القلة المؤمنة بعقيـدتها استعدت بقدر ما استطاعت ، ثم خاضت المعركة ، فكان فيها الفرقان والنصر المبين علـي أعداء الدين ، وأعداء الحياة المسالمة الهادئة ، ويأتي بعد ذلك قوة الرجال ، وقوة السلاح بما يتناسب مع التقدم العلمي في إعداد مسرح المعارك(٢٠٩)، وأدوات الحرب من العتاد والعدد وتوفيرها ، وإنفاق الغالي والثمين من أجلها حتى تكتمل منظومة القوة العصرية التي أمر الله رسوله والمؤمنين بإعدادها ، والمرابطة بها ، استجابة لدعوة الجهاد عند أول نداء ، ليتحقـق النصر المبين علي أعداء الله ، مصداقا لقوله تعالي : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَـى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (٢١٠).

ومعني القوة – أيضا – في قوله تعالي : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " : أنّ إعـــداد القوة هو ما يتفق مع استطاعه الأمة الإسلامية ، فلا يستساغ أن ينتظر المسلمون ريثما يـــتم إعداد قوة تكافيء قوة أعدائهم لأن ذلك قد يطول ، ويعطّل فريضة الجهاد ، ويُطْمِع الأعداء في المسلمين ، وإلا كان المسلمون قد انتظروا حتى يكملوا الاســـتعداد في بـــدر، ومؤتـــة ، وغيرهما .

لقد خطب عبد الله بن رواحة في جنوده يشجعهم علي لقاء العدو حينما فزعوا من كثرة عدد عدوهم في غزوة مؤتة فقال[٢١١] " يا قوم إن التي تكرهونها لهي الشهادة التي خرجتم تطلبونها ، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ، ولا بكثرة سلاح ، ولا بكثرة خيول ، مـــا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به .. انطلقوا . فوالله لقد رأيتمونا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد . انطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهـــور عليهم فذلك ما وعدنا الله ورسوله وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فنلحـــق بـــالإخوان نرافقهم في الجنان" [٢١٢].

وروي الواقدي عن أبي هريرة قال : " شهدت يوم مؤتة ... فلما دنا المشركون منَّا رأينا مالا قِبَل لأحد به من العدة ، والسلاح ، والكراع ، والحرير ، والديباج ، والذهب .. فبرق بصـــري : فقال لي ثابت بن الأرقم : يا أبا هريرة كأنك تري جموعا كثيرة ؟ قلت : نعم : قال : إنك لم تشهد بدر معنا ! إنا لم ننتصر بالكثرة " [٢١٣].

والأمثلة من واقع صفحات التاريخ الإسلامي كثيرة – من غزوة بدر سنة ٢ هـــ إلي العاشر من رمضان سنة ١٣٩٦ هـ – وكلها تشهد للمجاهـــدين المســـلمين بالصـــدق والإيمان، فما كانوا يرهبون الرَّدى ، بل يقدمون غير هيابين ولا وجلين ، إلا أن يحشرهم الله مسلمين مجاهدين ، همّة كل واحد منهم أن يكون علي حد قول القائل :

ولست أبالي حين أُقتل مسلما علي أي جنب كان في الله مصرعي

فلم ينظروا إلي كثرة جنود الأعداء ، ولم يعرفوا كم أعدّ لهم الأعداء من العُدَد ، لكنهم كانوا موقنين بإيمانهم وثقتهم في نصر الله الذي ينصر من ينصره : " إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" [٢١٤] " ، " وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " [٢١٥].

كان لهم إيمانهم الذي يدفعهم إلي الإقدام ، وهم علي حدّ قول الفيلسوف – الشاعر الباكستاني – محمد إقبال :

كُنّا جبالا في الجبال وربما سرنا علي موج البحار بحارا
كنا نُقدِّم للسيوف صدورنا لم نخش يوما غاشما جبارا
بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا و الأرض تقذف نارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة تنبت من حولنا الأزهارا (٢١٦)

من كل هذا نري أن الجهاد يجب أن يستمر، وترتقي أساليبه وتتطور تبعا لروح العصر ، وأنه لابد أن يمتلك المسلمون – باستمرار– ما يخيف العدو ليظل لواؤنا مرفوعا، وصوتنا مسموعا ، لأن من أهم وظائف الجهاد الأمور النفسية ، التي تقوم على المغالبة والمدافعة والاستعداد الدائم لدحر الأعداء ، لأن الأقدر على المغالبة والمدافعة هو الأجدر بالحياة والسيادة (٢١٧) ، وقد نبه الله عز وجل إلى أن المغالبة أمر ضروري لتحرك المجتمع المسلم ، حتى لا يفسد بالسكون والدعة فقال سبحانه : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض " (٢١٨)، ويوم تغفو أمة الإسلام عن أمجادها ، وتجبن عن مواجهة أعدائها ، يوم يبتليها الله بالذُّل والخسف والصغار : " فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا " فالجهاد ماض إلي يوم القيامة – " كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم – لأن الصراع قائم بين الخير والشر منذ آدم إلي يوم القيامة، ولقد كان قعود المسلمين عن الجهاد ، وذهاب روح الجندية منهم في عهود التخلف والضعف ، سببا في تفتيت وحدة المسلمين وتفريق كلمتهم ، وإسقاط كرامتهم ، لأنهم فقدوا الحصانة التي يكفلها لهم الجهاد المقدّس ، وإذا كانت كلمة التوحيد هي أساس حضارتنا ، فإن توحيد الكلمة هو سر بقائها ، فهل تتحد كلمتنا ، وتلتهب جذوة الجهاد من جديد في نفوس أبناء هذه الأمة لاسترداد المجد ، وتحرير الأرض ، وإرغام العدو علي التراجع ؟ ! إن حضارة القرآن لا يمكن أن تزدهر إلا إذا أمنت عدوها ، ولذا كان

علينا أن نظل مجاهدين ، حذرين،جماعات وأفراد : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُـذُوا حِـذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً " (٢١٩) .

ومن واقع التجربة التي خاضها أجدادنا نعرف أنهم لم يضعوا السيف عن كاهلـهم ، ولا استناموا علي هَدْهَدة الأماني ، بل صبروا وصابروا ورابطوا، وخاضوا معارك ضارية ضـد أعداء الله ، ونازلوا أعتى دولتين في العالم – الفرس و الروم – فانتصروا عليهما ، وحكموا بلادهما بعد أن حرروا أهل هذه البلاد . وهكذا عاش المسلمون بالجهـاد أعـزة كرامـا ، والمسلمون اليوم في حاجة إلي اجتماع الكلمة علي أساس من الإيمان الصحيح ، لينطلقوا من جديد فيحرروا أرضهم ، وينقذوا تاريخهم ، ومن ثم تكن لهم الكرامة في الأرض (٢٢٠) ، وما ذلك علي الله بعزيز ، وإن الجهاد هو نعم السبيل إلي السعادة في الدنيا ، والفوز بالجنـة في الآخرة : " جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ينجي الله بـه من الهم والغم "(٢٢١) .

إن الإسلام دعوة للمسالمة والسماحة والعدل ، لكنه في الوقت نفسه صـخرة تـتحطم عليها أباطيل الأعداء ، عندما يلوح عدوانهم علي المسلمين ، فـإذا مـا وقعـت الحـرب وأصبحت حتمية فإن هناك شروطا وآداباً وتوجيهات كثيرة ، أمـر الإسـلام أن يلتـزم المسلمون بها، وكلها تعكس أخلاق الإسلام وقيمه الرفيعة ، فمن الشروط : النهي عن البدء بالعدوان كما في قوله تعالي : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)(٢٢٢) ، ومن الآداب التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مـن بعده ، بالالتزام بها : الوفاء بالعهود والمواثيق ، وأيضا النهي عن قتل من لا يُقاتل – الآمنين – وتحريم المثلة ، وتحريم قطع الزروع والثمار ، وتلويث الآبار ، وهدم البيوت ، وكذا تأمين من طلب الأمان ، ويبدو ذلك التسامح والنبل والإنسانية مع الأعداء(٢٢٣) ، فيما كـان يوصي به النبي صلى الله عليه وسلم من يرسلهم للقتال فيقول لهم : " قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا وليـدا ولا امـرأة ، ولا

تقطعوا شجرة ، ولا تعقروا ناقة إلا لمأكل ، وستجدون قوما يعبـــدون الله في الصـــوامع ، فدعوهم وما خلُّوا أنفسهم له" (٢٢٤) .

وفي الصحيحين(٢٢٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما – قال : " وُجِدَت امرأة مقتولـــه في بعض الغزوات فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان " .

كما أوصي أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – أسامة بن زيد حين بعثه إلي الشام لقتال أهل البغي فكان مما قاله : " لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تقطعوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة .. وســوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع – وهم الرهبان – فاتركوهم وما فرغوا أنفسهم له " (٢٢٦)

هذا هو موقف الإسلام من غير المسلمين عموما ، وهو موقف يتســـم بـــالرفق واللّـــين والتسامح، الذي لا نظير له مع الأعداء المحاربين ، أما موقفه من أتباع الديانات الســـماوية السابقة –خصوصا اليهودية والنصرانية – فقد بلغ درجة من التسامح واللّـــين والمـــودة ، حيث أمر الإسلام أتباعه بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين ، وبكتبهم المترلة التي وصفها بالهدي والنور ، بل إن الإسلام دعا إلي الإحسان لأهل الذمة المعاهـــدين ، الـــذين لم يـــدخلوا في الإسلام– بعد دعوقم إليه بالرفق واللين – وقبلوا دفع الجزية مقابل الحماية الإسلامية ، ولم يكرهم علي الإسلام .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " من ظلم معاهدا أو انتقصه حقه ، أو كلّفـــه فـــوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا حجيجة يوم القيامة " (٢٢٧). وفي هذه المعاملة أكبر دلالة علي تسامح المسلمين وعدلهم ورحمتهم ، حتى في الغزو! ومتى كـــان المســـلمون مهاجمين أو معتدين ؟ ! أفي غزوة بدر ؟! وقد سلبت ديارهم وأموالهم وأوطـــانهم وعوملـــوا بوحشية فاجرة في مكـــة . أم في غزوة أحد ؟! وقد زحف جيش الشرك علي المدينة يريـــد أن يستأصل شأفة المسلمين ! أم في الخندق ؟! وقد تواطأ الكفر مع النفاق ومـــع اليهـــود فكونوا جيشا ضخما يريدون غزو المدينة والقضاء علي من فيها ! .

أيُلامُ المسلمون إذا هبّوا يدافعون عن بلادهم وعقيدتهم ؟ ! تلك هي حروب الإسلام ، وهذه هي غزوات الرسول : كانت إما لنصرة المظلوم ، وإما للدفاع عن العقيدة وعن النفس وعن الكرامة الإنسانية ، ولم تكن أبدا للظلم أو العدوان [٢٢٨].

أيمكن بعد ذلك أن يقال : إن الإسلام دين القسوة والوحشية والإرهاب ؟ فأين هي الوحشية والإرهاب ؟ وكل أهداف الجهاد هي الدفاع عن الأرض والعرض والعقيدة ابتغاء وجه الله ، وفي سبيله [٢٢٩] " الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً) [٢٣٠] .

يبقي بعد ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله .. [٢٣١] " إنه في شأن المشركين عبدة الأوثان الذين يضعون العوائق في طريق هذا الدين ، ويصدّون عنه ويتآمرون عليه . أفلا يوضع حد لتآمرهم وكيدهم ؟ ! إنه لا يرد العدوان إلا الجهاد ، فالحرب في الحق شريعتنا ، ورد العدوان وكبح جماحه فريضتنا وواجبنا ، وقيمة عليا من قيم حضارتنا، وفيما عدا ذلك فإن الإسلام يعايش الأديان معايشة طيبة، وتجد في كنفه كل مودة واحترام ، بل تسامح ذهب مذهب الأمثال في حروب المسلمين ضد أعدائهم . إن الجهاد في الإسلام لم يشرع إلا من أجل الدفاع عن الحق ، ونصرة المظلوم ، ونشر الأمان والسلم في الأرض ، وتأديب الأشرار حتى لا يعيثوا في الأرض فساداً، والذين يقولون في الإسلام غير ذلك نردّ عليهم بقوله تعالي: " كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا " [٢٣٢] .

ويكفي لنرد علي دعاوي المستشرقين عن وحشية الإسلام بكلام واحد منهم هو المستشرق الفرنسي "رينان" حيث يقول : " لم ينصف المؤرخون الغربيون الإسلام باتهامهم إياه بالقسوة في الجهاد والفتوحات ، مع أن هذا الجهاد كان ضروريا لنشر العدالة التي تزدان بها التعاليم الإسلامية المشرقة " [٢٣٣]

وما يزال التاريخ يردّد قصة السماحة الدينية التي تحلّي بها الإسلام عندما جاء وفد نصارى نجران إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلهم في المسجد ، فكانوا يصلون في

جانب منه، ورسول الله مع المسلمين يصلون في جانب آخر ، ولما أرادوا مناقشة الرسول في دينهم استمع إليهم وناقشهم برفق وسماحة ، وصالحهم علي جزية عينية متواضعة ، ناسيا تاريخهم الطويل في الكيد والعداء للإسلام . كما أدخل يهود نجران أيضا في هذا الصلح وأعطاهم الحرية الكاملة في دينهم بعدل وإنصاف ، وفعل نفس الشيء مع يهود بني جنية القريبة من أيلة ، ويهود بني غاديا ، وبني عريض ، وأهل جرباء وأذرح [٢٣٤].

ولقد عاشت المساجد تجاور الكنائس والبيع دائما ، في ظل حضارتنا ، وتمارس الشعائر المسيحية واليهودية داخل الكنائس والكُنُس من غير تضييق ولا منع ، ومن نصوص حضارتنا المضيئة في أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لهم مالنا وعليهم ما علينا " [٢٣٥].

ومن أثر تلك السماحة أحب النصارى واليهود حكم المسلمين ، وفضّلوه علي حكم طوائفهم ، لأنهم كانوا يجدون في الإسلام العدالة والإنصاف ، كل هذا جعل كثيرا من الناس يدخلون في الإسلام ، لا خوفا من سيوف المسلمين ، ولا هربا من الجزية – التي هي أقل من الزكاة – وإنما إعجابا بهذا الدين وانبهارا بهؤلاء المسلمين الأوائل ، الذين كانوا نماذج متألقة، وصورا مشرقة لتعاليم الإسلام ومثله العليا ، وقيمه الحضارية ، ونخص من هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام طواعية : القبائل العربية النصرانية في شمال الجزيرة العربية ، وأهل حمص ، وشمال أفريقيا ، ومسيحي الأندلس [٢٣٦]، وما ذلك إلاّ لسماحة الإسلام وعدالة أهله عن حكامهم من الروم ، والقوط الشرقيين .

لكن الطامة الكبرى أن المسيحيين ردّوا جميل المسلمين بالتنكيل بهم زمن الحروب الصليبية ، و اليوم أيضاً الاستعمار الجديد ، والأطماع الصليبية تنكل بالمسلمين في العراق والسودان والصومال والبوسنة والهرسك ، فضلا عن اليهودية الصهيونية التي ما تزال تنكل بالفلسطينيين، والبقية آتية – لا ريب – بسبب نكوص المسلمين عن الحق ، وتعطيلهم لشرعة الجهاد ، وعمالة بعض حكامهم المستبدّين لقوي الاستكبار والهيمنة الصليبية والصهيونية .

..... وختامـــــــــاً .....

وبعد .. فهذه هي المدينة الفاضلـــة التي أقامهـــا النبي محمد صـــلى الله عليـــه وســـلم وليست " يوتوبيـــا " يا سيـــر " توماس مـــور " كما تحلم ؟ أو كمـــا يـــذهب بـــك الخيـــال ، إنكارا لشمس ساطعة ، لا ينكرها إلا من أصيب برمد في عينيـــه ، وهي أيضـــاً ليست مدينة الفارابي الأفلاطونيـــة الطبقيـــة الوثنيـــة .

إنمـــا هي المدينـــة الفاضلـــة التي أقام النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعها القويم ودولتها الفتيـــة على الإخـــاء والحب والتكافل والعدل – حتى – مـــع غيـــر المسلمين .

دولة كانت مؤسستها الأولى (المسجـــد) الذي أضحى داراً للعبادة ، ومقراً للتوجيـــه والقيادة ومصنـــعاً للرجال في شتى مناحي الحيـــــاة .

إنـــها دولة الإسلام الأولى التي أقامت مجتمع ((الإخاء الإسلامي)) من بـــين أشـــتات وركام عرب الجاهليـــة ، فصنعت منهم " خيـــر أمةٍ أخرجت للنـــاس " حينما اعتصـــموا بحبل الله ، وأطاعوا الله ورسولـــه ، فتحابوا وتكافلوا وتوادوا وصاروا " كالجسد الواحـــد إذا اشتكى بعضـــه اشتكى كلـــه " .

إنهـــا دولة الإسلام الأولى ، التي وضعت أول دستور للعلاقات الدولية بين المســـلمين وغير المسلميـــن ، ممن يساكنونهم في المدينة وما يجاورها ، وأقامت هذا القانون الدولي على العدل والبر والإحسان ، شريطـــة أن يلتزم الآخرون بهذه المبادئ .

ومع علم قائدها (المعصوم) صلى الله عليه وسلم أن الآخرين لا يقيمون وزنـــاً لهـــذه المواثيـــق الدولية ، لأنهم جبلوا على الغدر والخيانة وكراهية كل البشر – حسبما يصـــفهم القرآن الكريـــم – إلا أنه عاهدهم وعاقدهم حـــتى إذا نقضـــوا عهـــودهم ، أُخِـــذُوا ، بذنوبهـــم، وليشهد التاريخ عليهـــم فيما قدَّمت أيديهم ، ولأجل هذا كـــان لابـــد مـــن الإعداد والاستعداد لمواجهة هؤلاء الخائنيـــن الغادريـــن ، وأمثالهم مـــن أعـــداء الحيـــاة

والدين، فكانت حتمية الجهاد لحماية الدولة الفاضلة وأهلها المسلميـــن ، وردع عـــدوان الكافرين .

هل يُطبق المسلمون اليوم هذه المثل والأسس . والله لن يصلح آخر هذا الأمر إلا بمـــا صلح به أوله ! ، وهو إعمال كتاب الله وسنة رسوله ، وإعلاء شرعة الجهاد ضد الأعداء .. وإلا فالذلّة والهوان.... ! اللهـــم سلم يا ربنـــــا ... .

وآخر دعوانـــا أن الحمـــد لله رب العالميـــــــن ...

الهوامش

(١) ومثال ذلك : ما قاله بابا الفاتيكان " بندكتو السادس عشر " في خطبة له في إحدى الجامعات الألمانية سنة ٢٠٠٦ م من أن : الإسلام لم يقدم شيئاً للإنسانية سوى العنف والإرهاب والعدوان . " كبرت كلمة تخرج من أفواههـــم " .

(٢) انظر د . محمد أحمد الشحري : العلوم والفنون الإسلامية وأثرهما في تقدم أوروبا . طبعة مكتبـــة المتنبي الدمـــام سنة ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م صـــ ١٩ – ٣٦ .

(٣) أنظر : آراء أهل المدينة الفاصلة للمعلم (الثاني) أبي نصر محمد بن محمد الفارابي التركي . (تقديم د. طه الدسوقي حبيشي – دراسة وتحقيق القدس للدراسات والبحوث. طعة المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة سنة ٢٠٠٢ م) صـــ ٢١ –٢٣ من مقدمة المحقق بقلم د . طه حبيشي

(٤) من هذه الخصال : أن يكون تام الأعضاء ، حسن العبارة ، جيد الفطنة و الحفظ ، محبًا للتعليم ، محبًا للصدق وأهله ، غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح ، والشهوات واللذات ، والعب (الشرب الكثير بعير تنفس) ، كما ذكر من خصاله أيضاً أن يكون كبير النفس قوى العزيمة ، حكيماً عليماً مستـطاً ذا رأي جيد ، ومعرفة بشرائع الأوليـــن ، وأن يكون المال عنده هيـــّن (أنظر الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة صـــ ١٩٧ – ٢٠٠) .

(٥) انظر : الفارابي : المرجع السابق : صـــ ١٨٣ – ١٨٥ .

(٦) أنظر : الفارابي : المرجـــع السابق صـــ ٢١٨ .

(٧) أنظر : الفارابي : المرجـــع السابق صـــ ٢١٩ ، ٢٢٣ – ٢٢٤ .

(٨) أنظر : تعليقات د . طه حبيشي في مقدمتـــه لكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة صـــ ١١ – ١٧ (طعة القاهرة سنـــة ٢٠٠٢ م) .

(٩) أنظر . د . محمد الشحـــري : مرجع سابق صـــ ١٨٣ – ١٨٦ .

(١٠) د . عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة صـــ ٢–٣ ، ٢٨–٢٩ (طبعة دار المعارف القاهرة ســـة ١٩٦٩ م) .

(١١) أنظر : د . محمد الشحري · مرجع سابق صـــ ١٩٨ – ١٩٩ .

(١٢) إن الترجمة الحرفية لهذا الكتاب هي : الكوميديا الممتازة ، وإنما نعتها بالإلهية ليضفي عليها قسطاً من القداسة والمهابة في عيون مواطنيـــه ، ليبدأوا في إصلاح الكنيسة من داخلها ، قبل أن يفرض عليها هذا الإصلاح رغم أنف رجالها ، كما فعل مارتن لوثر في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (أنظر د . عبد العزيز التناوي : مرجع سابق صـــ ٤٥ .

(١٣) د : عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق صـــ ٤٧ .

(١٤) يوتوبيا : كلمة لا تينية ، معناها : لا وجود لها " No where " أنظر : د : عبد العزيز الشناوي · مرجع سابق ص٦٩ هـــ١ .

(١٥) أنظـــــر : د . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق صـــ ٦٩ – ٨٠ ، و سير توماس مور : يوتوبيا صـــ ٥٧ – ٢٣١ (ترجمة د. إنجيل بطرس) تقديم د . زكي نجيب محمود ،ـــ طبعة مكتبة الأسرة القاهرة سنـــة ٢٠٠٠ ، وانظر تقديم د . زكى نجيب محمود لنفس الكتاب ص ٩–٥٢ ، وعرضه القيم لموضوعات " يوتوبيا " فى مجلة : تراث الإنسانية المجلد الأول ص ٣٦٨ –٣٨٥ .

(١٦) سورة الملك : الآية ١١ .

(١٧) انظر : صفى الرحمن المباركفوري : الرحيق المختـــوم (طبعة أولى النهى للإنتاج الإعلامي مكـــة المكرمة ١٤٢٢ هـــ) صـــ ١٨٢.

(١٨) انظر : د /محمد لقمان السلفي:الصادق الأمين (طبعة دار الداعي للنشر . الرياض ١٤٢٧هـــ) صـــ ٢٨٤– ٢٨٥

(١٩) انظر صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم صـــــ ١٨٣ .

(٢٠) سورة الجمعة : الآية٢ ، وانظر : المؤلف : مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية (بحث منشور في حولية كلية اللغة العربيـــة بالقاهـــر ة– عدد ٢٣ – في سنـــة ١٤٢٧ هـــ / ٢٠٠٦م.

(٢١) سورة الأنفال : الآيـــة ٢ .

(٢٢) لقد حاول اليهود عبر العصور تفتيت وحدة الأوس والخزرج وإثارة الشقاق والحروب بينهم ، وآخر ذلك " يوم بعاث " الذي كان قبل الهجرة بخمس سنوات ، وهَزَمَ فيه الأوس الخزرج الذين طالما غلبوهم من قبل، لتفوق قواهم عليهم عدداً وعدة ، حتى لجأت الأوس إلى محالفة يهود النضير وقريظة ـــ فغلبتهم في بعاث ـــ ولكن الأوس فطنوا لخطورة الإجهاز على الخزرج ، لأن هذا يمكّن اليهود من السيطرة على يثرب ، وكان من نتيجة هذا الانتباه السديد أن اتفق الأوس والخزرج على اختيار " عبد الله بن أبي بن سلول " ملكاً للجميع ، لكونه وأهله قد وقف على الحياد في " يوم بعاث " وكان لدى الأوس والخزرج شعور قوي بمرارة الحرب الطاحنة التي استمرت بينهم سنوات كثيرة ، وقضت على كثير من مقاتليهـــم وثروتهم ، وأوصلتهم إلى حافة الهلاك والدمار ، وقـــــد رافق شعورهم بالخطر هذا دخول الإسلام في بيوتهم (بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية) ثم هجرة النبي والمسلمين إليهم ، مع بشائر التآخي والسلام بين المسلمين ، فكانت نفوس عرب يثرب على استعداد كامل لقبول دعوة الإسلام رحمة من الله بحالهم ، وشفقة عليهم (أنظر د . محمد لقمان السلفي : الصادق الأميـــن صـــ ٢٨٦ – ٢٨٧) .

(٢٣) أنظر : صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم صـــ ١٨٣ – ١٨٤ .

(٢٤) أنظر : صفي الرحمن المباركفوري : مرجع سابق صـــ ١٨٤ ، وأبو الحسن علي الحسني الندوي : السيرة النبوية صـــ ٢٠٢ – ٢٠٤ (الطبعة الثانية دار الشروق جدة سنـــة ١٤٢٦ هـــ – ٢٠٠٦م)، و د . محمد السلفي : الصادق الأميـــن صـــ ١٢٠ – ١٢١ .، صـــ ٣١٩ .

(٢٥) أنظر : د محمد لقمان السلفي : الصادق الأمين صـــ ٢٨٥ .

(٢٦) سورة آل عمران: من الآية٧٥ .

(٢٧) أنظر : المباركفوري ، مرجع سابق صـــ ١٨٤– ١٨٦ ، ود . محمد السلفي : مرجع سابق صـــ ٢٨٥ – ٢٨٦ ، وأبو الحسن الندوي : مرجع سابق صـــ ٢٠٤ – ٢٠٦

(٢٨) ابن هشام : السيرة النبوية (تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي .طبعة دار المعرفة بيروت ٢٠٠٤ م) ج ١ صـــ ٤٦٤ – ٤٦٥ ، و البخاري : الصحيح ج١ صـــ ٤٥٩ ، (طبعة الهند ١٣٨٧ هـــ) .

(٢٩) أنظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ صـــ ٤٦٧ – ٤٦٨ ، والبخاري : الصحيح ج ١ صـــ ٥٥٦ ، و د . السلفي : الصادق الأمين صـــ ٣١٣ .

(٣٠) أنظر : المباركفوري : الرحيق المختوم صـــ ١٨٧ .

(٣١) كان اسم المدينة المنورة القديم (يثرب) ومعناه : ذميم متشاءم به ، لأن الثرب فساد في كلام العرب ، والتثريب هو : اللوم و التعيـــر (لسان العرب لابن منظور مادة : ثرب) وكانت :" يثرب " اسماً شائعاً تقصد وتعرف به هذه المدينـــة ،كما ورد ذكره في القرآن الكريم : " يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا " – آية ١٣ الأحزاب وقد ورد في حديث صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير اسمها من يثرب إلى " المدينة "، ونهى عن استخدام اسمها القديم ، وقال : " هي طابة " ،كما قال: " هذه طابة " (مسند الإمام أحمد ج ١ صـــ ٢٢١ ، ج ٤ صـــ ٢٨٥) .

(٣٢) انظر أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء (طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . القاهرة سنة ١٩٧٨م) ص ٧٥ – ٧٦ .

(٣٣) كان النبي صلى الله عليه وسلم قد هاجر من مكة صحبة أبي بكر الصديق ليلة ٢٧ صفر سنـــة ١٤ من النبوة متجهاً إلى يثرب للإقامة والحماية ، بعد أن أمر أصحابه بسبقه إليها ، بناء على مبايعـــة الأوس والخـــزرج (الأنصار) له في بيعة العقبة الثانية ، في موسم الحج المنصرم سنـــة ١٣ من النبوة .

(٣٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ صـــ ٤٤٧ – ٤٤٨ ، ٤٥١ .

(٣٥) أنظر البخاري : الصحيح ج ١ صـــ ٧١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ . وابن القيـــم : زاد المعاد ج ٢ صـــ ٥٦ . الطبعة المصرية ١٩٢٨ م (الطبعة الأولى) .

(٣٦) الحديث في : صحيح مسلم ح ١ صـــ ١٢٩ .

(٣٧) الحديث في : صحيح مسلم جـ ١ صـ ٢٨٥ .

(٣٨) الحديث في صحيح البخاري برقم ٤٦٣٩ ، و انظر فتح الباري لابن حجر ج ٩ صـ ٦٦ (طبعة الريان القاهرة سنة ١٩٨٩ م) .

(٣٩) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ صـ ٥٦٩ ، ٥٩٧ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ٢٣٦ .

(٤٠) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء صـ ٧٧ – ٧٩ .

(٤١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ صـ ٧ .

(٤٢) الحديث في : صحيح البخاري برقم ٤٤٧٤ ، وفي سنن أبي داود برقم ١٤٥٨ .

(٤٣) الحديث في : سنن النسائي ج ٢ صـ ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٤٤) انظر : د . عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ٨١ ، ٨٣ .

(٤٥) انظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ صـ ٤٢٦ – ٤٢٧ . وانظر نص الحديث في : صحيح مسلم ج٤ ص١٩٣٩ ، وسنن النسائي ج ٢ صـ ٤٨ .

(٤٦) أنظر : أحمد عبد الرحيم السايح ، مرجع سابق صـ ٩١ – ٩٢ .

(٤٧) الحديث في سنن النسائي ج ٢ صـ ٧٩ .

(٤٨) الحديث في صحيح البخاري ج ٢ صـ ٥٩٣ ، وانظر القصة في : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٣٩٥ – ٣٩٦ .

(٤٩) أنظر : ابن هشام : السيرة ج ٢ صـ ٢٠٢ – ٢٠٤ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ٣٣٠ .

(٥٠) سورة التوبة الآية :١٠٢ .

(٥١) أنظر : أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ٨٩ – ٩٢ ، و توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـ ٢٢٠ . .

(٥٢) سورة المائدة : الآيات ٨٢ – ٨٤) .

(٥٣) أنظر ما يأتي في هـ ٤ صـ ٢٦ .

(٥٤) الحديث وارد في : سنن أبي داود ج ٢ صـ ٣٥٧ .

(٥٥) أنظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ صـ ٧٢ ، صـ ١٩٦ ، ٢١٣ .

(٥٦) ا أنظر : أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ٩٤ – ٩٥ .

(٥٧) الحديث وارد في صحيح مسلم ج١ صـ ٢٥٤ طبعة بيروت سنة ١٩٥٣ م .

(٥٨) الحديث وارد في ضعيف الحديث للألباني .

(٥٩) انظر : الألباني : ضعيف الحديث .

(٦٠) الحديث في صحيح مسلم جـ ١ صـ ٢٦٢ طبعة بيروت .

(٦١) سورة التوبة : الآية ١٨ .

(٦٢) سورة البقرة : الآية ١١٤ .

(٦٣) أنظر : دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ صـ ٥٣٨ وما بعدها ، وابن كثير : السيرة النبوية ج ٢ صـ ٣٠٢ وما بعدها .

(٦٤) عبد الحليم الجندي : القرآن والمنهج العلمي المعاصر (طبعة القاهرة ١٩٨١ م) صـ ١٠٦ .

(٦٥) د.محمد الخطيب : تاريخ العلم في الإسلام صـ ١١ – ٢٦ . (طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م) .

(٦٦) مجلة البحوث الإسلامية العدد الأول صـ ١٦الرياض ..

(٦٧) سيرة النبي لابن هشام . ج١ صـ ٤٥٥ .

(٦٨) سورة : الأنفال الآية : ٧٥ .

(٦٩) ابن القيم : زاد المعاد جـ٢ صـ ٥٦ ، وانظر د . السلفي : الصادق الأمين صـ ٢٩٥ .

(٧٠) انظر : محمد الغزالي : فقه السيرة صـ ١٤٠ – ١٤١ (طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م) .

(٧١) صحيح البخاري : جـ ١ ص ٥٥٣ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـ ١٩١ ، د . محمد السلفي : مرجع سابق صـ ٢٩٤ .

(٧٢) سورة الحشر : الآية رقم ٩ .

(٧٣) الدين والحياة . ع ١١٩ صـ٦ . وزارة الأوقاف المصرية ، وأحمد عبد الرحيم السايح: الهجرة صـ ٩٨ – ١٠٠

(٧٤) القرطبي: تفسير القرآن. جـ١٨ صـ٢٤..

(٧٥) المراغي : تفسير القرآن .. جـ٢٨ صـ ٣٤ ..

(٧٦) ا بن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٤صـ٣٣٨ . بتصرف

(٧٧) الزمخشري : الكشاف . جـ٤ صـ٨٤ ..(طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

(٧٨) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٤صـ٣٣٨ . والحديث رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (البخاري : الصحيح ج ١ صـ ٥٥٣)

(٧٩) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٤صـ٣٣٧ . والحديث رواه البخاري في : الصحيح ج ١ص ٣١٢.

(٨٠) سورة الفتح : من الآيـــة ٢٩ .

(٨١) سورة الأنفال : الآيـــة ٨٥ .

(٨٢) لم يحصل بعض المهاجرين الفقراء بعد مجيئهم إلى المدينة على عمل يدّر عليهم لقمة العيش ، كما لم يجدوا لهم مأوى خاصة من تدفق منهم – بعد عقد المؤاخاة – على يثرب ، وكثير منهم لم يكن لديه خبرة بالزراعة (حرفة أهل المدينة) ولم يكن لديه مال ليتاجر به ، لم ينس النبي – صلى الله عليه وسلم – هؤلاء، فلما تحوّلت القبلة إلى الكعبة ، وبقي حائطها في مؤخرة المسجد النبوي ، أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بتظليله وتسقيفه وأسماه الصُّفّة ، وأنزل فيه الفقراء وغرباء المسلمين ، وكل من طلب حياة الزهد ، وأجرى عليهم النبي – صلى الله عليه وسلم – والمسلمون الأرزاق ، فعاشوا وتفرغوا للعبادة وتحصيل العلم من النبي– صلى الله عليه وسلم – ، فإذا جاء وقت الجهاد أسهموا فيه (انظر د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـــ ١٩٥ – ١٩٦).

(٨٣)انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم صـــ ١٩١ .

(٨٤) انظر : نص الوثيقة في : ابن هشام السيرة جـــ ١ صـــ ٤٥٢ – ٤٥٣ ، و د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـــ ٢٩٩ – ٣٠١ .

(٨٥) انظر : أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة صـــ ١٠٧ وما بعدها (طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنـــة ١٤٢٢هـــ) .

(٨٦) الماوردي : أدب الدنيا والدين ، صـــ ١٤٠ (المطبعة الأميرية ١٣٤٦ هـــ / ١٩٢٨ م) .

(٨٧) أنظر الحديث في : صحيح مسلم ج ٤ صـــ ١٦٣٨ .

(٨٨) الماوردي : مرجع سابق صـــ ١٤١ .

(٨٩) الماوردي : أدب الدُّنيا والدين صـــ ١٤٢ ، و أحمد عبد الرحيم السايح ، مرجع سابق صـــ ١٠٧ وما بعدهـــا

(٩٠) الماوردي : أدب الدنيا والدين صـــ ١٤٢ بتصرف واختصار .

(٩١) سورة : الحجرات : من الآية : ١٣ .

(٩٢) محمد محمود الصواف: نظرات في سورة الحجرات صـــ ١٤٧ (طبع مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١ م)

(٩٣) محمد محمود الصواف : المرجع السابق صـــ ١٤٨ .

(٩٤) المراغي : تفسير القرآن . الجزء السابع صـــ ٢٠١ .

(٩٥) انظر : الشيخ : منصور علي ناصف : التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ج ١ صـــ ٦١ (طبعة جريدة صوت الأزهر . القاهرة سنة ٢٠٠٠ م) .

(٩٦) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

(٩٧) ابن كثيـــر : تفسير القرآن صـــ ٢٠٧ .

(٩٨) الألوسي : تفسير القرآن . الجزء الأول صـــ ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٩٩) المسلمون أمة واحدة عدد رقم ١٠١ صـــ ١٣مجلة (الدين والحياة) : وزارة الأوقاف المصرية . ١٣٩٣ هـــ

(١٠٠) استراتيجية العالم الإسلامي صـــ ٩٥ . مجلة وزارة الحج والأوقاف السعودية ذو الحجة ١٣٩١هـــ .

(١٠١) سورة : المائدة : الآية ٤٨ ، ٤٩ .

(١٠٢) سورة البقرة : الآيـــة ٢ – ٥ .

(١٠٣) سورة : المائدة : الآيتـــان ١٥ – ١٦ .

(١٠٤) الشيخ محمد رشيد رضا : تفسير المنار . الجزء السادس صـــ ٣٠٥ (طبعة الهيئة العامة للكتاب – القاهرة سنـــة ١٩٦٩ م) .

(١٠٥) سورة النساء : الآية : ٥٩ .

(١٠٦) سورة الحجرات : الآية ٩ .

(١٠٧) تفسير القرطبي : ج ١٦ صـــ ٣٢٢ .

(١٠٨) الحديث وارد أيضاً في : صحيح البخاري ج ٢ صـــ ٨٩٦ .

(١٠٩) الحديث وارد في : صحيح البخاري ج ٢ صـــ ٨٩٣ .

(١١٠) الشيخ محمد الصواف : نظرات في سورة الحجرات صـــ ١٠٧ – ١٠٨ وأنظر ما سبق صـــ٢٤.

(١١١) سورة النور: الآيـــة ٥١

(١١٢) سورة النساء: الآيـــــة : ٦٥

(١١٣) سورة الأحزاب: الآيـــة : ٣٦ .

(١١٤) رواه مسلم ونقله ولي الدين التبريـــزي في مشكاة المصابيح جـــ ٢ صـــ ٤٢٢ طبعة الهند د .ت.

(١١٥) صحيح البخاري : ج ١ صـــــ ٦١ .

(١١٦) صحيح البخاري : ج ١ صـــــ ٦١ .

(١١٧) صحيح البخاري حـــ٢ صـــ ٨٩٠ .

(١١٨) صحيح البخاري جـــ ٢ صـــ ٨٩٦ .

(١١٩) سنن أبي داود جـ ٢ صـ ٣٣٥ ، و سنن الترمذي جـ ٢ صـ ١٤ .

(١٢٠) صحيح البخاري جـ ٢ صـ ٨٩٣ .

(١٢١) الحديث وارد في سنن أبي داود ، وجامع الترمذي ، ومشكاة المصابيح جـ ١ صـ ١٦٩ .

(١٢٢) أنظر : سنن الترمذي جـ ٥ صـ ٩٠ .

(١٢٣) سورة الأنبياء: الآية : ٩٢ .

(١٢٤) سورة الممتحنة الآية : (٨ ، ٩)

(١٢٥) سورة آل عمران : الآية : ٦٤ .

(١٢٦) انظر : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٩٦ ، والدكتور محمد السلفي . الصادق الأمين ص ٣٠١ ، وأحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـ ١١٩ – ١٢١ .

(١٢٧) انظر : ابن هشام : السيرة جـ ١ صـ ٤٥٢ – ٤٥٤ .

(١٢٨) : د. أكرم ضياء العمري · المجتمع المدني في عهد النبوة صـ ١٠٧ – ١١٢ ، و انظر : د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ٢٩٨ – ٣٠١ .

(١٢٩) أنظر ما سبق صـ ٢٨ من هذا البحث .

(١٣٠) نقلنا نصوص هذه المعاهدة من : المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ١٩٧ ، و د . محمد السلفي: الصادق الأمين صـ ٣٠٢ – ٣٠٣ ، بتصرف ، لوجود اختلاف بين المصدرين في ترتيب هذه البنود وزيادة ونقصان في بعضها ، وفي اعتماد الزيادة رجعنا إلى (ابن هشام : السيرة النبوية صـ ٤٥٣ – ٤٥٤ لأنه هو الأصل) ، وانظر : أكرم ضياء العمري : المجتمع المدني في عهد النبوة صـ ١٠٧ – ١٣٦ .

(١٣١) انظر : محمد السلفي : الصادق الأمين صـ ٣٠٦ – ٣٠٧ ، و المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٢٠٠ .

(١٣٢)المباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٢٠٠ ، و د . السلفي : الصادق الأمين صـ ٣٠٦ – ٣٠٧ .

(١٣٣) المباركفوري : مرجع سابق صـ ٢٠٢ نقلاً عن المواهب اللّدنية للقسطلاني ج ١ صـ ٧٥ (المطبعة الشرقية ، القاهرة سنة ١٩٠٧ م) ، وابن هشام : السيرة ج ١ صـ ٥٢٤ .

(١٣٤) ابن هشام : السيرة ج ١ صـ ٥٣١ ، وابن كثير : السيرة النبوية ج ٢ صـ ٣٦١ – ٣٦٣ ، وإبراهيم العلي : صحيح السيرة النبوية صـ ٢١٤ (طبعة عمان الأردن) ، وابن القيم : زاد المعاد ج٢ صـ ٨٤ (المطبعة المصرية سنة ١٩٢٨ م) .

(١٣٥) ابن هشام : السيرة ج ٢ صـ ٢٧١ ، والمباركفوري : الرحيق المختوم صـ ٣٥٧ .

(١٣٦) تيماء : قرية تقع إلى الشمال من خيبـــر وهي إلى الشام أقرب من الحجاز وكانت آخر معاقل اليهود ، وقد أجلاهم عنها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في خلافته (د . محمد السلفي : الصادق الأمين صـــ ٣٢٨ ، ٥٧٠) .

(١٣٧) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ صـــ ٢٨٠ ، و المباركفوري : مرجع سابق صـــ ٣٩٣ .

(١٣٨) أنظر في هذا المعنى ما ورد من أحاديث في صحيح البخاري ج ٢ صـــ ٥٦٣ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، والمباركفوري : مرجع سابق صـــ ١٩٨ – ١٩٩ .

(١٣٩) سورة المائدة : من الآيـــة ٦٧ .

(١٤٠) أنظر سنن الترمذي ج ٢ صـــ ١٣٠ ، والمباركفوري مرجع سابق صـــ ٢٠٠

(١٤١) سورة الحج : الآيات ٣٩ – ٤١ .

(١٤٢) أنظر ما يأتي صـــ ٤٨ – ٤٩ من هذا البحث .

(١٤٣)سورة البقرة : الآيات ١٩٠ – ١٩٣ .

(١٤٤) أنظر المباركفوري : الرحيق المختوم صـــ ٢٠٠ – ٢٠٧ .

(١٤٥)د . محمد عمارة : معالم المنهج الإسلامي (طبعة القاهرة سنـــة ١٩٨١ م) صـــ ٢٥١ – ٢٥٣ .

(١٤٦) سورة البقرة : الآية ٢٥١ .

(١٤٧) انظر : توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـــ ٢١٦ – ٢١٧ ، د . محمد جبر أبو سعدة : دراسات في تاريخ الحضارة والفكر صـــ ٨٦ (ط القاهرة ٢٠٠١ م) .

(١٤٨) أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة انطلاقة وبناء صـــ ١٢٩ – ١٣٠ ، د . محمد أبو سعده : مرجع سابق صـــ ٨٦ ، د . عبد الحليم عويس : حقوق الإنسان في الإسلام صـــ ١٣٤ – ١٣٥ (طبعـــة جدة ، السعودية ، ١٩٧٨ م) .

(١٤٩) الإمام الصنعاني : سبل السلام ج ٤ صـــ٥٤ .

(١٥٠) رواه الترمذي في : السنن ج٩ صـــ ٢٠٢ ، والنسائي · السنن ج ٦ صـــ ٤٢٨ .

(١٥١) رواه أبو داود في : السنن ج٦ صـــ ٤٩١ ، السنن الكبرى للبيهقي ج ٩ صـــ ١٦١

(١٥٢) د . محمد عمارة : مرجع سابق صـــ ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(١٥٣) رواه الإمام أحمد في : مسنده ج ٣صـــ ٢٦٦، وذكره الألباني وضعَّفه في السلسلة الضعيفة ج٢ صـــ ٥٤ .

(١٥٤) رواه مسلم في : صحيحه ج١ صـــ ١٦٨، والبيهقي في : السنن الكبرى ج١٠ صـــ ٩٠ .

(١٥٥) د. محمد عمارة : مرجع سابق صـــ ٢٥٣ ، وأحمد السايح : مرجع سابق صـــ ١٣٠ ، و د محمد سيد طنطـــاوي (شيخ الأزهر) : حوار هادئ مع بابا الفاتيكان بعنوان : هذا هو الإسلام (هدية مجلة الأزهر لشهر ذي القعدة سنـــــة ١٤٢٧ هـــ) صـــ ٣٤ ، د . عبد الحليم عويس - مرجع سابق ص ١١٨ .

(١٥٦) الفيروز أبادي . بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيـــز (طبعـــة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية د.ت) ج٢ صـــ ٤٠١ ، و محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر : هذا هو الإسلام صـــ ٣٣ – ٣٤ .

(١٥٧) سورة الأنعام : الآية ١٠٩ .

(١٥٨) الحديث في مسند أحمد ج ٤٨ صـــ ٤٨٧ ، و صحيح ابن حبان ج ٢٠ صـــ ٢٤٥ .

(١٥٩) محمد سيد طنطاوي : هدا هو الإسلام صـــ ٣٤ ، و د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـــ ١١٨، ١٢٣.

(١٦٠) رواه البيهقي في الزهد ج١ صـــ ٤٢ ، وضعفـــه الألباني .

(١٦١) سورة التوبة : الآية : ٢٠ .

(١٦٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٩

(١٦٣) أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة صـــ ١٣٦ – ١٣٨ ، د . عبد الحليم عويس مرجع سابق صـــ ١٢٣

(١٦٤) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(١٦٥) سورة فاطر : الآية ٦ .

(١٦٦) سورة لقمان : من الآية ٣٣

(١٦٧) الحديث وارد في - الإبانة الكبرى لابن بطة ج١ صـــ٢٩٨ ، (ط الرياض ، السعودية ١٤١٨ هـــ) ، من حديث عبد الله بن عمرو، وابن أبي عاصم كتاب السنة ج١ /٢١ . (ط بيروت ســـنة ١٤٠٠ هـــ) .

(١٦٨) سورة لقمان - الآية ١٧

(١٦٩) سورة آل عمران : الآية ١١٠

(١٧٠) سورة آل عمران : الآية ١٠٤

(١٧١) انظر . صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ صـــ ٢١ طبعة القاهرة د ت .

(١٧٢) سورة التوبة - الآية ٧٣ ،وسورة التحريم : الآية ٩ .

(١٧٣) الحديث أخرجه النسائي : السنن ج١٣ صـــ ١٢١ ، ومسند أحمد ج ٢٢ صـــ ٢٦١

(١٧٤) سورة المائدة : الآيتان ٧٨ – ٧٩ .

(١٧٥) انظر : سنن أبي داود – واللفظ له – ج٤ ، صـــ ٥٠٨ طبعة دمشق ، وسس الترمذي : كتاب التفسير حديث رقم ٣٠٥١ (طبعة الحلبي القاهرة سنة ١٣٣٧ هـــ) والأَطْرُ : هو الإلزام بإتباع الحق والبعد عن الظلم .

(١٧٦) للمزيد من التفصيل انظر في هذا الموضوع المؤلف : الحسبة في الإسلام (نظام رقابي متبادل بين الأمة والحكام) صـــ ١٥ – ٦٠ ، صـــ ١١٣ – ١٢٨ طبعة القاهرة ١٩٩٥ م .

(١٧٧) محمد المبارك : نظام الإسلام (الحكم والدولة) صـــ ١٢٥ (ط . رابعة دار الفكر – دمشق ١٩٨١م) .

(١٧٨) سورة الكافرون : الآية ٦ .

(١٧٩) سورة الكهف :الآية ٢٩ .

(١٨٠) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(١٨١) سورة يونس : الآية ٩٩ .

(١٨٢) سورة النساء : الآية ١٤٥ .

(١٨٣) انظر : توفيق سبع قيم حضارية ج٢ صـــ ٢١٧ ، ٢٢١ ، د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـــ ٢٦٠ – ٢٦١ (الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٠م)

(١٨٤) سورة البقرة : الآية : ٢١٦ .

(١٨٥) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة صـــ ١٣٨ .

(١٨٦) أحمد عبد الرحيم السايح : مرجع سابق صـــ ١٣٥، وأنظر : محمد المبارك : مرجع سابق صـــ ١٢٥، د . محمد سيد طنطاوي: هذا هو الإسلام صـــ٣٣ ، د . محمد أبو سعدة . مرجع سابق ص٨٦.

(١٨٧) سورة النساء : الآية ٩٧ .

(١٨٨) سورة الحج : الآيتان ٣٩– ٤٠ .

(١٨٩) انظر د : محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـــ ٢٦٧ نقلا عن ابن القيم . زاد المعاد في هدي خير العباد ج ٣ صـــ ٧٠ (ط بيروت ١٩٨٥م) .

(١٩٠) محمد المبارك : مرجع سابق صـــ ١٢٥ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ، ص ٨٦ ، د . محمد فتحي عثمان : حقوق الإنسان بين الشريعة والفكر القانوني صـــ ٢٢ (ط دار الشروق القاهرة ١٩٨٢ م) .

(١٩١) محمد الغزالي : مائة سؤال عن الإسلام جـ ١ صـ ١٠٨ (ط القاهرة طبعة ثانية سنة ١٩٨٣م)، وانظر توفيق سبع : قيم حضارية ج٢ صـ ٢١٧ – ٢١٨ ، ود . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ١٦٩– ١٧٠ .

(١٩٢) سورة البقرة : الآيات ١٩٠– ١٩٤ .

(١٩٣) سورة التوبة : الآية ٣٦ .

(١٩٤) سورة الأنفال : الآية : ٥٨ .

(١٩٥) محمد المبارك :مرجع سابق صـ ١٢٦ ، محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٣– ٣٤ ، د. عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـ ١٢٢ .

(١٩٦) سورة النساء : الآية ٧٥ .

(١٩٧)د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة صـ ٢٧٠ – ٢٧١ ، د . عبد الحليم عويس مرجع سابق صـ ١٢٩ – ١٣١ .

(١٩٨) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

(١٩٩) صحيح مسلم : ج٣ صـ ١٣٦٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طبعة بيروت د. ت ، وصحيح البخاري ج١٠ صـ١٢٤ .

(٢٠٠) سورة النساء : الآية ٩٠ .

(٢٠١) سورة النساء : الآية ٩٤ .

(٢٠٢) سورة الممتحنة : الآيات ٨ – ٩ .

(٢٠٣) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٣٥ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق صـ ٨٦ .

(٢٠٤) سورة البقرة : من الآية ٢٠٨ .

(٢٠٥) سورة محمد : الآية : ٣٥ .

(٢٠٦) د محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـ ٤٠ .

(٢٠٧) سورة الأنفال : الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .

(٢٠٨) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .

(٢٠٩) انظر : أحمد عبد الرحيم السايح : الهجرة صـ ١٣٠ – ١٣٣ ، د . عبد الحليم عويس مرجع سابق صـ ١٢١ – ١٢٢

(٢١٠) سورة الصف : الآيات ١٠– ١٣ .

(٢١١) أحمد عبد الرحيم السايح :الهجرة صـــ ١٣٨ – ١٣٩ .

(٢١٢) أحمد عبد الرحيم السايح . صور من حياة الرسول : (طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨م) صـــ ٥١٧ .

(٢١٣) أحمد السايح : الهجرة صـــ ١٣٩ ، وصور من حياة الرسول صـــ ٥١٦ .

(٢١٤) سورة محمد : من الآية ٧ .

(٢١٥) سورة الحج : من الآية ٤٠ .

(٢١٦) انظر : أحمد السايح : الهجرة صـــ ١٤٠

(٢١٧) د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـــ ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢١٨) سورة البقرة : الآيـــة ٢٥١ .

(٢١٩) سورة النساء : الآية ٧١ .

(٢٢٠) انظر توفيق سبع : قيم حضارية ج ٢ صـــ ٢٢١ – ٢٢٣ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص١٢٦ .

(٢٢١) الحديث في : مسند أحمد ج ١٩ صـــ ٤٢٩ عن عبادة بن الصامت .

(٢٢٢) سورة البقرة : الآية : ١٩٠ .

(٢٢٣) د. محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـــ ٣٩ – ٤١ ، د . محمد أبو سعدة : مرجع سابق ص٩١.

(٢٢٤) صحيح مسلم ج ٣ صـــ ١٣٥٧ ، وانظر فيه أيضا (ج٣ صـــ ١٣٥٩ ، ١٣٦٤ ، ١٤٦١) آداب الغزو ، ومسند أحمد ج ٤٧ صـــ ٤ .

(٢٢٥) صحيح البخاري ج ١٠ صـــ ٢٠٨ ، و صحيح مسلـــم ج ٩ صـــ ١٧٥ ، وانظر أيضاً : وسنن ابن ماجة ج ٨ صـــ ٣٦٥ ، ومسند أحمد ج ١٠ صـــ ٥٢ .

(٢٢٦) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـــ ٣٩ ، د . محمد أبو سعـــدة : مرجع سابق ص ٩١ و د محمد فتحي عثمان : مرجع سابق صـــ ٦٨ ، د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق صـــ ١٤٠– ١٤٢ .

(٢٢٧) الحديث وارد في : سنن : أبي داود ج ٨ صـــ ٢٩٢ ، والسنن الكبرى للبيهقي ج ٩صـــ ٢٠٥ ، وانظر : عن معاملة الإسلام لمحاربيه ، ومعاملته لأهل الذمة ، د . محمد الخطيب : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية صـــ ٢٦٠ – ٢٩٣ .

(٢٢٨) د . محمد سيد طنطاوي : مرجع سابق صـــ ٣٨ – ٣٩ .

(٢٢٩) انظر : توفيق سبـــع : قيم حضارية : جـــ٢ صـــ ٢١٩ .

(٢٣٠)سورة النساء : الآية ٧٦ .

(٢٣١) الحديث وارد في : صحيح البخاري ج٥ صـــ ٢٠٥ ، ج١٠ صـــ ٩٧ ، وصحيح مسلم ، ج١ صـــ ١١٤ ، وسنن الترمذي : ج٩ صـــ ١٨٤ .

(٢٣٢) سورة الكهف : الآية ٥ .

(٢٣٣) توفيق سبع : قيم حضارية ح٢ صـــ ٢٢٠ نقلا عن رينان .

(٢٣٤) د . محمد الخطيب : دراسات صـــ ٢٧٩ – ٢٨١ ، توفيق سبع : قيم ج ٢ صـــ ٢٢٠ .

(٢٣٥) انظر: صحيح مسلم ج٣ صـــ ١٣٥٧

(٢٣٦) انظر : سير توماس أرنولد : الدعوة إلي الإسلام (ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي طبعة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ م) صـــ ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٤٤ ، وقارن بين ما فعله المسلمون في الأندلس حين خضعت لحكمهم أكتربة غير مسلمة ثمانية قرون من الزمـــان ، لم يرغموهـــم على دحول الإسلام ، وبين ما فعله – فرديناند وزوجته إيزابلا – بالمسلميـــن بعد سقوط غرناطة في أيدي الأسبان سنة ١٤٩٢ م من الذبح والتنكيل وإرغام المسلمين على التنصُّر من خلال محاكم التفتيش عن العقيدة . (: د . عبد الحليم عويس : مرجع سابق ص ١٣٠) .

المصادر والمراجع

أولاً : المصـــــــادر .

١ – القــرآن الكريـــــم .

البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت : ٢٥٦ هـــ) :

٢ – الجامع الصحيح . طبعة استنبول سنة ١٩٨١ م ، وطبعة دار التراث القاهرة . د . ت ، وطبعـــة الهنـــد سنـــة ١٣٨٧ هـــ .

ابن بطـــة (أبو عبد الله عبد الله محمد بن حمدان العكبـــري ت : ٣٨٧ هـــ) :

٣ – الإبانة الكبرى (الموسوم بالإبانة عن أصول الديانة) تحقيق : حمد التويجري وعثمان الأثيوبي . طبعـــة دار الرايـــة الرياض سنـــة ١٤١٨ هـــ .

البيهقـــــي (ابو بكـــر أحمد بن الحسيـــــن ت : ٤٥٨ هـــ) :

٤ – كتـــــاب الزهـــــد . طبعـــة الهنـــد د . ت .

٥ – السنـــن الكبـــرى . طبعـــة مكة المكرمة (دار الباز سنـــة ١٩٩٤ م) .

التبريـــــزي (ولي الديـــــن محمـــد ت : ٧٣٧ هـــ)

٦ – مشكـــاة المصابيـــــح . طبعـــة الهنـــد سنـــة ١٣٧٩ هـــ .

الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٩٧ هـــ) :

٧ – الجامع الصحيح (وهو المعروف بسنن الترمذي) طبعة الحلبي . القاهرة سنـــــة ١٩٦٢ م ، وطبعة بيروت بتحقيق : أحمد محمد شـــاكر ، و محمـــد فـــؤاد عبـــد الباقـــــي ، و إبراهيـــم عطوة عوض د . ت .

توماس مـــور (السيـــــر) :

٨ – يوتوبيـــــا . ترجمـــة إنجيل بطرس ، تقديم : د . زكي نجيـــب محمـــود . طبعـــة القاهـــرة (مكتبـــة الأسرة) سنـــة ٢٠٠٠ م .

ابن حبان (أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي الداري ت ٣٥٤ هـ):

٩ – المسند الصحيح . طبعة بيروت د . ت .

ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢ هـ) :

١٠ – فتح الباري (شرح صحيح البخاري) طبعة الريان القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

أبو داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ت ٢٧٥ هـ) :

١٢ – السنن (في الحديث) . مراجعة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد . طبعة دار الفكر القاهرة د . ت .

الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد ت سنة ٤٦٧ هـ) :

١٣ – الكشاف (في تفسير القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد الفارابي التركي ت ٣٣٩ هـ) :

١٤ – آراء أهل المدينة الفاضلة . تحقيق ودراسة القدس للدراسات و البحوث . تقديم د . طه الدسوقي حبيشي . طبعة المكتبة الأزهرية للتراث . القاهرة سنة ٢٠٠٢م .

الفيروز أبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي ت ٨١٧ هـ) :

١٥ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة سنة ١٩٧٤ م .

القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندلسي ت سنة ٦٧١ هـ) :

١٦ – الجامع لأحكام القرآن (في التفسير) . طبعة دار الشعب القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ،قيم الجوزية ت سنة ٧٥١ هـ):

١٧ – زاد المعاد في هدي خير العباد . طبعة المطبعة المصرية (طبعة أولى ١٩٢٨م) وطبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م .

ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل بن عمر الدمشقي ت ٧٧٤ هـ) :

١٨ – تفسير القرآن العظيم . طبعة المنار . القاهرة سنة ١٣٤٣ هـ ، وطبعة دار الحديث القاهرة سنة ١٩٩٤ م .

١٩ – السيرة النبوية . طبعة دار إحياء التراث الإسلامي بيروت سنة ٢٠٠٠ م .

الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ت ٤٥٠ هـ) :

٢٠ – أدب الدنيا والدين . المطبعة الأميرية . القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

مسلم (الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري ت ٢٦١ هـ) :

٢١ – الجامع الصحيح (المعروف بصحيح مسلم) بشرح الإمام محيي الدين النووي . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م ، وطبعة بيروت بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي سنة ١٩٩٧م .

ابن منظور (جمال الدين محمد بن المكرَّم ت ٧١١ هـ) :

٢٢ – لسان العرب (معجم لغوي) طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

النَسَائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر ت ٣٠٣ هـ) :

٢٣ – السنن . طبعة المكتبة العلمية بيروت د . ت .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري اليمني ت ٢١٣ هـ) :

٢٤ – السيرة النبوية : تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي طبعة دار المعرفة بيروت سنة ٢٠٠٤ م .

ثانياً : المراجع .

إبراهيم العلي (الأستاذ) :

٢٥ – صحيح السيرة النبوية . طبعة عمَّان الأردن سنة ١٩٦٦ م .

أحمد عبد الرحيم السايح (الشيخ) :

٢٦ – صور من حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م

٢٧ – الهجرة انطلاقة وبناء . طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القـــاهرة ســـنة ١٩٧٨ م .

أكرم ضيـــاء العمري (الدكتـــور) :

٢٨ – المجتمع المدني في عهد النبوة . طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينـــــة المنـــورة ســـنة ١٤٢٢ هـــ .

توفيـــق سبـــــع (الشيـــــخ) :

٢٩ – قيم حضاريـــة في القرآن الكريم . طبعة مجمع البحوث الإســـلامية . القـــاهرة ســـنـــة ١٩٧٢ م .

توماس أرنولـــــد (السيـــــر) :

٣٠ – الدعوة إلى الإسلام . ترجمـــة حسن إبراهيم حســـن وعبـــد المجيـــد عابـــدين وإسماعيـــل النحراوي . طبعـــة النهضـــة المصريـــة القاهرة سنـــة ١٩٧٠ .

أبو الحســـن على الحسني النـــدوي (الشيـــــخ) :

٣١ – السيرة النبوية : طبعة دار الشروق . جدة السعودية سنة ١٤٢٦ هـــ .

صفي الرحمن المباركفوري (الشيـــخ) :

٣٢ – الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبويـــة) طبعـــة أولى النـــهي للإنتـــاج الإعلامي مكة المكرمـــة . السعوديـــة سنـــة ١٤٢٢ هـــ .

عبد الحليـــم الجنـــدي (المستشـــــار) :

٣٣ – القرآن والمنهـــج العلمي المعاصـــر . طبعـــة القاهـــرة سنـــة ١٩٦٩ م .

عبد الحليم عويس (الدكتـــور) :

٣٤ – حقوق الإنسان في الإسلام . طبعة جدة . السعوديـــة سنـــة ١٩٨٧ م .

عبد العزيز الشناوي (الدكتـــور) :

٣٥ – أوروبا في مطلع العصور الحديثة . طبعة دار المعـــارف . القـــاهرة ســـنة ١٩٦٩م

عبد الله إبراهيم محمد راجح (الدكتـــور) :

٣٦ – الحسبة في الإسلام (نظام رقابي متبادل بين الأمة والحكام) طبعة القاهرة سنـــة ١٩٩٥ م .

٣٧ – مقومات الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية (بحث نشر في حولية كليـــة اللغة العربية بالقاهرة العدد رقم ٢٣ ســـنة ٢٠٠٦ م .

٣٨ – من قيم الحضارة في القرآن الكريم والسنة النبوية . (بحث نشر في حولية كليـــة اللغة العربية بالقاهرة العدد رقم ٢٤ ســـنة ٢٠٠٧ م .

محمـــد أحمـــد الشحري (الدكتور) :

٣٩ – العلوم والفنون الإسلاميـــة وأثرهمـــا في تقدم أوروبا . طبعة مكتبـــة المتـــنبي الدمام. السعوديـــــة ســـنة ١٤٢٧ هـــ .

محمـــد جبـــر أبو سعـــد (الدكتـــور) :

٤٠ – دراسات في تاريخ الحضارة و الفكر الإسلامي . طبعة القاهرة ٢٠٠١م .

محمد رشيد رضا (السيد الشيخ) :

٤١ – تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ســـنة ١٩٦٩ م .

محمد سيد طنطاوي (الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور شيخ الأزهـــر) :

٤٢ – حوار هادئ مع باب الفاتيكان بعنوان (هذا هو الإسلام) ملحق مجلة الأزهـــر لشهر ذي القعدة ســـنة ١٤٢٧ هـــ .

محمـــد عمـــارة (الدكتـــور) :

٤٣ – معالم المنهـــج الإسلامـــــي . طبعـــة القاهـــرة ســـنة ١٩٨١ م .

محمـــد الغـــــزالي (الشيـــــخ) :

٤٤ – فقـــه السيـــرة : طبعة القاهرة سنـــة ١٩٨٦ م ، وطبعة مؤسسة عالم المعرفـــة بيـــروت د . ت .

٤٥ – مائـــة سؤال عن الإسلام . طبعـــة القاهرة (الثانية) ١٩٩٣ م .

محمد فتحـــي عثمـــان (الدكتـــــور) :

٤٦ – حقوق الإنسان بيـــن الشريعة و الفكر القانوني . طبعة دار الشروق . القـــاهرة سنـــة ١٩٨٢ م .

محمد لقمـــان السلفـــي (الدكتـــور) :

٤٧ – الصادق الأميـــن (بحث في سيرة سيد المرسليـــن صلى الله عليه وسلم) طبعة دار الداعي للنشر . الرياض سنـــة ١٤٢٧ هـــ .

محمـــد المبـــــارك (الدكتـــــور) :

٤٨ – نظام الإسلام (الحكم والدولة) طبعة رابعة . دار الفكر دمشق سنة ١٩٨١ م

محمد محمـــد الخطيـــــب (الدكتـــور) :

٤٩ – تاريخ العلم في الإسلام . طبعة القاهرة ١٩٩٨ م .

٥٠ – دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية . الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٩٩٠م .

محمد محمود الصواف (الأستاذ الشيـــخ) :

٥١ – نظرات في سورة الحجرات . طبعة مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٩٨١م .

محمد مصطفى المراغي (الشيخ الإمـــــام) :

٥٢ – تفسيـــر القرآن الكريـــم . طبعـــة القاهرة سنـــة ١٩٣٧ م .

ثالثاً : الدوريـــــات :

٥٣ – استراتيجيـــة العالم الإسلامي : مجلة تصدر عن وزارة الحج والأوقاف السعودية عدد ذي الحجـــة ١٣٩١ هـــ .

٥٤ – مجلـــة البحوث الإسلاميـــة – العدد الأول . الرياض سنـــة ١٣٩٦ هـــ .

٥٥ – مجلة الدين والحيـــاة – تصدر عن وزارة الأوقاف المصريـــة . عـــدد ٤٧ سنـــة ١٣٩٣ هـــ و عدد ١١٩ سنـــة ١٣٩٩ هـــ .